جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب ٣٧٧١/١١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا : إسلاميا
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٢٧ - برقيًا : إسلاميّ

ويضمن استمرار مظاهر الحياة فيه، ويكفل للإنسان بقاءه، هو نور الكون، وقيوم الوجود الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي عم خيره الكائنات وشمل فضله كل شيء.

والواقع أن الدعوة إلى الحق، هي هدف كل مؤمن مصلح صبار، وإنه ليلتمس لها كل سبيل، ويستعين إليها بكل وسيلة استجابة لأمر الله، الذي لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، وذلك ليخفف من مظاهر الشر، ويقلل من عوامل الفتنة، ويساعد ما تيسّر له في بلسمة جراح الناس، وكفكفة معاناتهم المعاشية والاجتماعية، ويسلك معهم سبيل الأبرار والصالحين.

وفضلاً عن أن الدعوة إلى الحق مفتاح مبارك، يخول حامله شق طريق الخير والبر، وفتح باب الرحمة واللطف، والرعاية الربّانية.. وهو لا بدّ مع الاستعانة بالله، وحسن القصد، وطيب الخلق والصبر، واصل إلى النور والهدى، ثم إلى الفوز بالرضى العميم.

ومثل هذا الكتاب، يمارس دوراً حواريّاً بناءً مع كل قارىء حصيف، واسع المدارك، يطلب الحق وينشد المعرفة الصحيحة، بعيداً عن التشنجات، ومجرداً من العواطف والاحاسيس المسبقة التي تحمل الحب أو الكره، والقبول والرفض، لأنه يعالج موضوعات هامة تتصل بالتوراة وبالانجيل وبالقرآن، وأنها ولا ريب ستفتح له آفاقاً جديدة، وتدخل به في أجواء من المقابلة والمقارنة والدرس والتمحيص، وتبتعث لديه أفكاراً تتصل بالعلاقات الأصيلة بين هذه الكتب، فتعود به إلى الجذور وتكشف له أموراً ما كان يمكنه الوصول إليها، بعيداً عن مثل هذه القراءة، وتعرفه إلى معالم نورانية تريه الحقيقة ناصعة، فيقدّرها حق قدرها، ويبدأ بأن يفكر من أين ينبغي له أن يبدأ. فضلاً عن أنه سيرى الطريق الصحيح، الذي

مقدّمة الكتاب

كانت الحقيقة وما تزال ضالة الإنسان وهدفه المنشود، فقد شغلت فكره في كل مجال، في مجال العقيدة في الخالق وجوداً وذاتاً ونوعاً، والكون منشأ ونظاماً وتطوراً ومآلاً، وفي أنظمة سلوك الإنسان وذاته ومعاشه ونوع علاقاته مع ربه، ومع أخيه الإنسان ومدى ما يستفاد منها لضمان سعادته وأمنه ورخائه...

ولقد وصل حتى الآن إلى حقائق، التقى فيها مع أخيه الإنسان كحقيقة وجود الله الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء. وكحقيقة خلق الكون وحدوثه وأصل نشأته ومصيره وتغيره، وحقائق القيم الإنسانية ونقائضها، وبعثة الرسل ونزول الوحي والكتب ووجود الملائكة والجن والمعاد والحساب والعقاب والقضاء والقدر والجنة والنار وغيرها.

ولكنه مع ذلك ظل يختلف في حدود وأوصاف ونوعية هذه الحقائق خلافاً قائماً على مسوغات ومبررات فكرية أو بغياً أو اتباعاً للهوى وانجرافاً مع مغرياته يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (١). ويقول: ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ (٢) ويقول: ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٣) ويقول: ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ (٤).

---

(١) الجاثية: ١٦-١٧.

(٢) يونس: ١٩.

(٣) البقرة: ٢١٣.

(٤) الزخرف: ٧٨.

لقد ترجمناه لأنه كشف النقاب عن كثير من الحقائق التي سبق ولفت القرآن الكريم النظر إليها والتي تساعد كثيراً من مفكري عصرنا المخلصين على تجلية أمور هي في صالح المجتمعات الإنسانية.

ولأن كثيراً من المسلمين بخاصة، بل من مفكريهم في غفلة عن هذه الحقائق التي اهتدى هذا الكاتب الكبير إليها فرغبنا في أن نضعها تحت أعينهم، ولكن هذه المرة من كاتب مخالف لهم ومفكر بعيد عنهم...

وحرصا على خدمة الحق والفكر الصافي والبر الطاهر النقي، واندفاعا وراء مصلحة الإنسان الصالح الذي غشت بصره وقلبه اخبار ملفقة وأفكار خاطئة ونظرات منحرفة علنا نسهم بجهد متواضع لكشف اللثام عن الحق وجلاء صورته ليراها كل الناس على السواء.

وبعد، فإن هذا الكتاب هو في نظرنا قيمة دينية وفكرية وانسانية صالحة ومخلصة وان كنا نختلف مع صاحبه في عديد من النظرات، أجبرنا أن يكون لنا نصيب في المساهمة بوضعه بين يدي مجموعات من أبناء هذه المنطقة المتحضرة من العالم وفي هذا العصر، عصر الاشعاع الذي لم يتمكن رغم دفقات نور العلم والتكنولوجيا الحديثة فيه أن ينجي أجياله ومجتمعاته من دياجير ظلام الضلال والانحراف والبهتان والشر.

بيروت ١٤ ربيع الأول ١٣٩٨

٢١ شباط ١٩٧٨

أما الوحي القرآني الذي نزل عقب ستة قرون من المسيح، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل اللذين أكثر من ذكرهما؛ بل وفرض على كل مسلم الإيمان بالكتب السابقة[1] كما ابرز المكانة المهمة التي شغلها في تاريخ الوحي رسل الله، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى، الذي كان فيهم في مقام مرموق. وقد اظهر القرآن ولادته، كما في الاناجيل، كحدث معجز، كما كرم والدته مريم تكريماً خاصاً واطلق اسمها على إحدى سوره وهي سورة مريم.

ولا مفر من الاعتراف بأن هذه التعاليم الإسلامية مجهولة على العموم في بلادنا الغربية. وقد يعجب البعض من هذا، ولكن سرعان ما يزول ذلك إذا ذكرنا الطريقة التي لقن بها العديد من الأجيال قضايا الإنسانية الدينية، والجهالة التي تركوا فيها تجاه كل ما يخص الإسلام. أليس هدف اطلاق التسميات «الدين المحمدي» و «المحمديين» حتى في أيامنا هذه، غرس الاعتقاد الخاطىء في الأذهان بأنها تتعلق بعقائد منتشرة بفعل الإنسان، وليس لله فيها (في مفهوم المسيحيين) أي مكان. وأن كثيراً من مثقفينا المعاصرين يعنون بمقومات الإسلام الفلسفية والاجتماعية والسياسية ثم لا يتساءلون كما هو واجب، عن ماهية الوحي الإسلامي. انهم يطرحون ــ كقاعدة ثابتة ــ استناد محمد على ما سبقه ليبعدوا بهذه الطريقة عن الذهن كل اتصال له بمسألة الوحي بالذات.

وإلى جانب هذا، أي ازدراء لم يجابه به المسلمون في بعض الأوساط المسيحية؟ لقد لمست ذلك عندما حاولت عقد حوار للمقابلة بين نصوص توراتية ونصوص قرآنية، تتناول موضوعاً واحداً. ولاحظت الرفض المبدئي لمجرد اعتبار ما يتضمنه القرآن في الموضوع المطروح، كما لو كان الاستشهاد بالقرآن بمثابة انتماء إلى الشيطان!

ويظهر أن ثمة تغيراً جذرياً يتم في أيامنا على أعلى مستوى في العالم المسيحي. والوثيقة التي صدرت عن أمانة سر الفاتيكان، ووزعت فيما بعد عن المجمع الفاتيكاني الثاني لغير المسيحيين، وفيها توجيهات للحوار بين المسيحيين والمسلمين، وكانت ثالث طبعاتها بتاريخ ١٩٧٠ تشهد بعمق التغير في المواقف

(١) النساء ١٣٦.

ثم استقبل المجلس المسكوني لكنائس جنيف علماء الجزيرة، كما استقبلهم المطران «إلْشِنْجَر» أسقف استراسبورغ، ودعاهم إلى إقامة صلاة الظهر في كاتدرائيته وأمامه. ولئن كان الأمر قد أعلن عنه، فمن قبيل المظاهرة أكثر منه من قبيل تقدير معناه الديني العظيم. وعلى كل حال فقد كانوا قلائل أولئك الذين سألتهم عن هذه المظاهر وأجابوا بأنهم علموا بها!!

هذا وسيكون انفتاح البابا بول السادس على الإسلام باعلانه شخصياً «أنه مشحون بإيمان عميق بتوحيد العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهاً واحداً» مبدأ تاريخ العلاقات بين الدينين. ولقد بدا لي ضرورياً هذا التذكير بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية تجاه المسلمين، لأن كثيرين من المسيحيين المطبوعين على العداوة للإسلام، كما اسفت له الوثيقة الصادرة عن الفاتيكان المشار إليها سابقاً، هم في الأساس أعداء لكل تفكير يصدر عنه. ومن هنا بقوا في جهل واقعه، وبقي تصورهم للوحي الإسلامي في ضلال مبين.

ومهما يكن فإنه يبدو من الحق أنه عندما نريد درس وجه من وجوه الوحي لدى أحد أديان التوحيد الثلاثة، أن ندخل إليه بالمقابلة مع ما يكون للدينين الآخرين من نظرة في النقطة نفسها، لأن الدراسة الشاملة في مسألة ما تكون أكثر فائدة من دراسة منفصلة. ومقابلة بعض الموضوعات المعالجة في الكتب المقدسة مع معطيات العلم في القرن العشرين، تهم بالتالي الأديان الثلاثة دونما استثناء. ثم ألا تشكل هذه، بل ألا ينبغي لها أن تشكل كتلة أكثر تماسكاً في تقاربها، فيما هي جميعها مهددة في أيامنا بالاكتساح المادي؟! في حين تستوي البلاد المتأثرة باليهودية ــ المسيحية مع البلاد الإسلامية في القول ــ وبخاصة في الأوساط العلمية ــ بأن الدين والعلم لا يلتقيان[1]. ولكي تعالج المسألة بمجموعها تتطلب ترسعات مهمة. وهدفي هنا ألا أتناول سوى وجه من الموضوع وهو اختبار الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة.

---

(١) هذا كلام إن صح قبوله لدى علماء الدين اليهودي أو علماء النصرانية، فإنه مرفوض لدى علماء الإسلام الذين يعتزون ويفتخرون ويؤكدون أن الدين والعلم توأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر. راجع الفقرة الأخيرة من هذا الفصل. المترجم.

لم تكن الأحاديث والأناجيل سوى شهادات بشرية عن وقائع ماضية. وسنرى خلافاً لما يفكر فيه الكثيرون، أن مؤلفي الأناجيل الأربعة المعترف بها لم يكونوا شهود عيان للأحداث التي يروونها، وكذلك بالنسبة إلى أكثر مجموعات الحديث جدية. وينبغي أن تتوقف المقارنة عند هذا الحد، لأنه إن جاز نقاش أصالة هذا الحديث أو ذاك، فلقد كان بالنسبة إلى الأناجيل موقف الكنيسة الحاسم في عصورها الأولى في أمر العديد منها إذ أعلنت اعتماد أربعة منها فقط رغم وجود التناقضات فيما بينها في كثير من النقاط، وأمرت باخفاء الأخرى التي وصفت بأنها مشكوك فيها.

وثمة فرق أساسي آخر بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ذلك هو غياب النص الموحى به ــ والمحدد في الوقت نفسه ــ عند المسيحية، بينما يملك الإسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف.

إن القرآن هو نص الوحي المنزل على محمد ﷺ من سيد الملائكة جبريل لأنه قد كتب في الحال. ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وكانوا يردّدونه أثناء صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان. وقد رتب محمد ﷺ آياته في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته، والفت في عهد الخليفة عثمان (٢٣-٣٥ هـ) الكتاب الذي هو بين أيدينا وخلافاً لما جرى في الإسلام، فإن الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافاً لما يتصوره كثير من المسيحيين... وهكذا تجدها مطروحة مسألة أصالة نصوص الوحي المسيحي والوحي الإسلامي.

لقد كانت مقابلة نصوص الكتاب المقدس بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان. وتوافق الكتب والعلم كان عنصراً ضرورياً لأصالة النصوص المقدسة. وقد رسخ القديس أوغسطين فيما بعد هذه القاعدة في رسالته رقم ٨٢ التي سنوردها فيما بعد. وقد لوحظ، مع تطور المعرفة، وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم. فتقرر عدم المقابلة بينهما. ويجب الاعتراف أنه بهذه الطريقة برز

=النساء ١٥٦-١٥٧ (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وأن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾. وعند هذا النص يحسن الوقوف وعدم الضرب في الاراء والظنون. المترجم.

اكتشفنا آثار أعمال إنسانية ترجع دونما ريب إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. فلا يجوز إذن اعتبار النص التوراتي لسفر التكوين كما لو كان صحيحاً. إذ يذكر السلالات البشرية، والتواريخ التي تحدد بداية الإنسان (خلق آدم). إنها ترجع إلى سبعة وثلاثين قرناً قبل المسيح. وبإمكان العلم أن يقوم في المستقبل بتدقيقات في التأقيت أعظم من تقديراتنا الحالية. ولكنا نستطيع أن نكون واثقين بأننا لن نثبت أبداً أن الإنسان ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما شاء التقويم العبري سنة ١٩٧٥. إن معطيات التوراة المتعلقة بالإنسان القديم هي إذاً خاطئة. هذه المقابلة مع العلم تبعد كل مسألة دينية بالمعنى الصحيح، لأن العلم مثلاً لا يجد أي تفسير لكيفية تجلي الله لموسى «عليه السلام»، أو للسر الذي يحيط بمولد عيسى «عليه السلام» ومجيئه إلى العالم من دون أن يكون له أب طبيعي. في حين أن الكتب المقدسة لا تقدم أي تفسير مادي عن وقائع من هذا النوع. إن هذه الدراسة تنصب على ما تعلمنا إياه الكتابات المقدسة من موضوع الظواهر الطبيعية الكثيرة التنوع التي تحيطها إلى حد ما بتأويلات أو تفسيرات. وبهذا الخصوص ينبغي أن نقابل ثروة الوحي القرآني الضخمة بالنسبة للوحيين الآخرين في هذا الموضوع بالذات.

ودون أية فكرة مسبقة، وبموضوعية تامة أجدني أتوجه أولاً إلى الوحي القرآني باحثاً عن درجة التوافق بين نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وقد كنت أعرف من بعض الترجمات أن القرآن يسوق كل أنواع الظواهر الطبيعية. ولم أكن أملك منها إلا معرفة جزئية، ولكن بعد تدقيق النص العربي بإمعان شديد قمت بجردة شاملة استبان لي منها أنه ليس في القرآن تأكيد يمكن أن ينتقد من الوجهة العلمية في هذا العصر الحديث.

وقد قمت بالتدقيق ذاته للعهد القديم والأناجيل بالموضوعية نفسها، فلم يكن ثمة بالنسبة للأول ما يحوج الانتقال إلى أبعد من سفر التكوين للوقوف على تأكيدات مناقضة لمعطيات العلم المعترف بها في هذا العصر.. ويغرق المرء دفعة واحدة لدى فتح الأناجيل، عند نسب المسيح الذي يبدو من الصفحة الأولى في مشكلة مهمة، هي أن نص متّى هو في هذه النقطة متناقض صراحة مع نص لوقا،

العهد القديم

من هو مؤلف العهد القديم؟

كم من قارىء للعهد القديم يلقى عليه هذا السؤال، فلا يحير جواباً إلا مردداً ما قرأه في مدخل التوراة بأن مؤلف هذه الكتب المقدسة كلها هو الله. مع أن الذين كتبوها هم بشر من الذين أوحى الروح القدس إليهم[1].

ويقتصر كاتب مقدمة التوراة على اعلام القارىء أحياناً بواسطة هذا المفهوم الموجز الذي يقطع الطريق على التساؤل، بينما يضيف أحياناً تصحيحاً، مفاده أنه يمكن أن تكون بعض التفصيلات قد زيدت من قبل البعض على النص الأصلي. ولكن انصباب النزاع على مقطع ما، لا يخدش جوهر «الحقيقة» العامة فيه. ومن هنا الالحاح الذي تضمنه الكنيسة المعلمة، المؤيدة بالروح القدس، القادرة وحدها على تنوير المؤمنين في هذه النقاط. ألم تعلن الكنيسة ابتداء، من مجامع القرن الرابع قائمة بالكتب المقدسة؟ هذه القائمة التي صدقت لتشكل ما نسميه القانون في مجامع فلورنس (١٤٤١) وتورانت (١٥٤٦) وفاتيكان أول (١٨٧٠) وحديثاً جداً مجمع الفاتيكان الثاني الأخير؟ ألم تنشر بعد كثير من البراءات نصاً عن الوحي على جانب كبير من الأهمية، استغرق وضعه ثلاث سنوات من العمل المضني (١٩٦٢-١٩٦٥)؟ إن غالبية قارئي التوراة، تجد هذه المعلومات مشجعة في استهلاك الطبعات المعاصرة فتكتفي بضمانات الأصالة المعطاة على مر القرون من دون أن تفكر مطلقاً في إمكان مناقشتها.

---

(١) إن هذا الكلام يصعب تطبيقه على ما سيأتي للمؤلف من أحكام في هذا الموضوع، تحاول بمجموعها أن تثبت أن أيدي البشر امتدت إلى كثير من نصوص التوراة والانجيل. المترجم.

الثالث قبل المسيح. وقد قام بها يهود الاسكندرية. وعلى نصها يستند مؤلفو العهد القديم. وقد ظل نفوذها حتى القرن السابع الميلادي. إن النصوص اليونانية الأساسية المتداولة على العموم في العالم المسيحي، هي نصوص المخطوطات المحفوظة تحت اسم «محفوظات الفاتيكان» في مدينة الفاتيكان، و «محفوظات سينا» في المتحف الانكليزي في لندرة والتي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.

وقد استطاع القديس جيروم في السنوات الأولى من القرن الخامس الميلادي، وضع نص في اللاتينية انطلاقاً من الوثائق العبرية نشرت في الطبعة المسماة Vulgat الترجمة اللاتينية للتوراة بسبب نشرتها العالمية بعد القرن السابع الميلادي.

كل هذه النصوص اتاحت للاختصاصيين الوصول إلى صياغة «متوسطة» للتوفيق بين النصوص المختلفة. ولقد انجزت مجموعات متوازية متقاربة في لغات مختلفة تورد جنباً إلى جنب النصوص العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والأرامية حتى والعربية مثل توراة «والتون» الشهيرة. ولنكمل المطاف نضيف أن المدركات التوراتية المتباينة، كانت بين مختلف الكنائس المسيحية سبب رفضها جميعها نفس الأسفار. كما أنها حتى الآن ليس لها في اللغة الواحدة الأفكار الواحدة عن الترجمة. فمهمة التوحيد في طريق الانتهاء. والترجمة المسكونية للعهد القديم التي حققها عدد من الخبراء الكاثوليك والبروتستانت ستصل إلى نص مركب.

وهكذا يبدو إسهام الإنسان في نص العهد القديم عظيماً. وإننا لنتحقق دونما عسر من نص إلى آخر، ومن ترجمة إلى أخرى، ومع التصحيحات المستخلصة حتمياً، أن النص الأصلي كان تحريفه ممكناً خلال أكثر من ألفي سنة.

أصل التوراة:

قبل أن تصبح مجموعة أسفار، كانت تقليداً شعبياً يرتل عفوياً من الذاكرة التي كانت في الأصل الوسيلة الوحيدة لتداول الأفكار.

وفي المرحلة البدائية يسبق النظم النثر. ولذلك كان الانشاد دأب كل شعب، في إسرائيل كما في غيره. وشعب إسرائيل مدفوعاً بظروف تاريخية أنشد كثيراً

على أن ثمة مجالاً للتفكير بأنه بعد استقرار الشعب اليهودي في أرض كنعان، أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل المسيح، استعملت الكتابة، دونما دقة، لنقل العرف والمحافظة عليه، حتى بالنسبة إلى الشرائع التي يخيل للناس أنها ذات ديمومة أطول. ومن بين هذه الشرائع التي قيل أنها كتبت بيد الله، الوصايا العشر التي نقلت في العهد القديم بمقتضى نصين «سفر الخروج ٢٠-١-٢١» و «دوترونوم ٥-١-٣٠». جوهرهما واحد. ولكن التلون والتغير فيهما باديان ولقد كان ثمة اهتمام بجمع محفوظات مهمة فيها: عقود، ورسالات ولوائح شخصية (قضاة، وموظفون كبار في المدن ولوائح سلالات) ولوائح قرابين ولوائح الغنائم بحيث تكونت محفوظات يسرت التوثيق أثناء التحرير النهائي للمؤلفات التي أفضت إلى الأسفار التي بين أيدينا. ففي كل سفر ألوان أدبية مختلفة ممزوجة. وعلى الاختصاصيين بحث أسباب هذا التجميع المتباين بين أنواع مختلفة من الوثائق.

والمهم أن نقرب هذه الطريقة بالتركيب بين مجموعة متخالفة هي العهد القديم، على أساس مبدئي من الرواية الشفوية لما أمكن وقوعه تحت سماوات أخرى وفي أزمنة أخرى لدى نشأة أدب بدائي.

ولنأخذ مثلاً على ذلك، نشأة الأدب الفرنسي في عصر ملكية الفرنسيين حيث تصدرت الرواية الشفوية في البداية لتسجل الوقائع. فقد كانت في الغالب حروب لحماية المسيحية، كما كانت مآس مختلفة لمع فيها أبطال، وتأثر بهم بعد أجيال متأخرة شعراء القرون الوسطى، ومؤرخون، ومؤلفو «عهود» مختلفة. وابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي برزت تلك الأغاني الرمزية التي يختلط فيها الخيال بالحقيقة، فبنت أو ألفت أول صرح للملحمة المنظومة. كان من أشهرها أنشودة رولان. وهي أغنية تاريخية لواقعة مسلحة كبيرة لمع فيها رولان قائد مؤخرة الأمبراطور شارلمان في رجعته من غزوة لاسبانية. ولم تكن تضحية رولان فيها حدثاً منتزعاً من الخيال لتغطية احتياجات القصة. لقد كانت الغزوة في الخامس عشر من آب سنة ٧٧٨. وكانت رداً على هجوم من الجبليين الباسك. ورغم أن العمل الأدبي في هذه القصة يبرز في مجموعة من الأساطير لها سند تاريخي إلا أن المؤرخين لم يأخذوا بها حرفياً.

أسفار العهد القديم

إن العهد القديم مجموعة مؤلفات غير متساوية الطول، ومختلفة النوع، كتبت خلال أكثر من تسعة قرون في لغات عدة أخذا بالسماع. وكثير من هذه المؤلفات صححت ثم أكملت، تبعاً للأحداث أو للضرورات الخاصة، على مدى أجيال، متباعدة أحياناً بعضها عن بعض.

ومن المعقول أن يكون ازدهار هذا الأدب الثري، قد تم في مطلع عهد الملكية الإسرائيلية في القرن الحادي عشر قبل المسيح. وهو العصر الذي ظهر فيه في الحاشية الملكية سلك الكتبة. وهم شخصيات مثقفة لا ينحصر عملهم في الكتابة فقط. وترجع إلى هذا العصر بدايات الكتابات الأولى المجزأة المذكورة في الفصل السابق. وهي كتابات من المفيد تثبيتها خطياً، كبعض الأناشيد التي ذكرت آنفاً، وتنبؤات يعقوب وموسى «عليه السلام»، والوصايا العشر. وعلى العموم النصوص التشريعية التي كانت قبل اكتمال القانون تشكل تقليداً دينياً. كل هذه النصوص تؤلف قطعاً متناثرة هنا وهناك، في مجموعات مختلفة من العهد القديم.

وفي وقت متأخر قليلاً، ولعله في مجرى القرن العاشر قبل الميلاد، كان قد وضع النص اليهودي للأسفار الخمسة، التي شكلت فيما بعد هيكل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى «عليه السلام». وزيد عليها فيما بعد المقطع الإلهي والمقطع الكهنوتي. ويعالج النص اليهوي الأصلي الذي صدر عن مملكة يهوذا في الجنوب مرحلة أصول الخلق حتى موت يعقوب «عليه السلام».

وفي آخر القرن التاسع، منتصف القرن الثامن قبل المسيح في مملكة شمال (إسرائيل)، ازدهرت النبوة، وانتشر تأثيرها مع إيليا واليسع «عليهما السلام» اللذين نملك اسفارهما. وكان هذا العصر، عصر النص الإلهي للأسفار الخمسة

سفر الجامعة كوهيلت إلى القرن الثالث قبل المسيح، وهو أيضاً تاريخ تحرير نشيد الأناشيد، وكتابي التاريخ الاستقرائي لعزرا ونحميا. وقد ظهر سفر الجامعة أو سيراخ في القرن الثاني قبل المسيح. أما كتاب حكمة سليمان، وكتابا مكابي فقد حررت قبل قرن من ميلاد المسيح. هذا ويصعب تأريخ كتب راغوث واستير ويونان. كما يصعب تأريخ كتابي طوبيا ويودث. كل هذه الدلالات قد كتبت احتياطاً من التعديلات اللاحقة، لأن كتابات العهد القديم لم تعط شكلها الأولي إلا قبل المسيح بقرن واحد. ولم يصبح هذا الشكل بالنسبة إلى الكثيرين نهائياً إلا في القرن الأول بعد الميلاد.

وهكذا ظهر العهد القديم كصرح لأدب الشعب اليهودي من أصوله حتى العصر المسيحي، وقد حررت الأجزاء التي يتألف منها. وتمت وروجعت فيما بين القرنين العاشر والأول قبل المسيح. وليست هذه وجهة نظر شخصية ندلي بها هنا عن تأريخ تحريرها، بل لقد أخذت معطياتها التاريخية الأساسية من فصل (التوراة) المكتوب لدائرة المعارف العالمية [1] من قبل سندروز وهو أستاذ في جامعة الدومينيكان في سولشوار. ولا بد لكي نفهم ما هو العهد القديم، من أن نتذكر هذه المعلومات المثبتة تماماً في أيامنا هذه من اختصاصيين ذوي خبرة رفيعة.

فقد اختلط الوحي بكل هذه الكتابات. ولا نعرف اليوم إلا ما تركه لنا منه الذين عالجوا نصوصه حسب هواهم ووفقاً للظروف التي وجدوا فيها، والضرورات التي واجهوها [2].

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية مع تلك الموجودة في مقدمات التوراة المختلفة والهادفة في أيامنا إلى تبسيطها للناس، نتأكد من أن الوقائع مسوقة فيها

---

(١) طبعة ١٩٧٤ جزء ٣ صفحة ٢٤٦-٢٥٣.

(٢) ان هذا الكلام من الاهمية بمكان. وان على الذين يقرأون هذه الكلمات التي يكتبها فرنسي في أواخر القرن العشرين أن يروا فيها شهادة مشاهدة على اعجاز القرآن، وأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى صدق دعوة محمد ﷺ وان يتعرفوا بالحق. وصدق الله تبارك وتعالى اذ يقول: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ البقرة ٧٨ «المترجم».

الأماكن التي خرجوا منها» (سفر العدد ٢، ٣٣) أو أن «موسى «عليه السلام» كتب هذه الشريعة» (سفر التثنية ٩، ٣١). وقد شرع الناس ابتداء من القرن الأول قبل المسيح يدافعون عن هذه النظرية، وأيدها «فلافيوس جوزيف، وفيلون الاسكندري».

أما اليوم فقد أهملت نهائياً باتفاق الجميع. ولكن هذا لا يمنع أن ينسب العهد الجديد إلى موسى «عليه السلام» أبوته للأسفار الخمسة. وبولس في فصل من رسالته إلى أهل روميه (٥، ١٠) وهو يورد عبارة من سفر الأحبار تؤكد أن «موسى «عليه السلام» بذاته كتب عن العدالة التي تأتي من الشريعة» بينما يقول يوحنا على لسان عيسى «عليه السلام» في إنجيله (٥، ٤٦، ٤٧) هذه الجملة «لو كنتم تصدقون موسى «عليه السلام» لصدقتموني لأنه أخبر عني فيما كتب. وإذا كنتم لا تصدقون كتبه فكيف تصدقون كلامي؟» ويقصد هنا الكتابة. والعبارة اليونانية الموجودة في النص الأصلي هي Epistente والواقع أن هذا تأكيد خاطىء تماماً وضعه الإنجيلي على لسان المسيح «عليه السلام» كما سيثبت ذلك فيما يلي:

إني أستعير عناصر هذا التدليل من الأب دوفو مدير المدرسة التوراتية في القدس الذي قدم لترجمته سفر التكوين ١٩٦٢ بمدخل عام للأسفار الخمسة، وساق براهين قيمة جداً تتجه ضد التأكيدات الإنجيلية في أبوة موسى «عليه السلام» للأسفار الخمسة.

ويذكر الأب دوفو «بأن العرف اليهودي الذي تبعه المسيح «عليه السلام» والرسل» بقي مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى. وقد كان «ابن عزرا» في القرن الثاني عشر المعارض الوحيد لهذه النظرية. وفي القرن السادس عشر نبه كارلستادت إلى أن موسى «عليه السلام» لم يستطع كتابة خبر موته في سفر التثنية (٣٤، ٥-١٢). ويذكر المؤلف فيما بعد انتقادات أخرى أنكرت نسبة جزء على الأقل من الأسفار إلى موسى «عليه السلام»، وبخاصة كتاب ريشار سيمون في (الأوروتوار) «تاريخ العهد القديم النقدي ١٩٦٨» الذي أورد الصعوبات الزمنية، والتكرارات، وفوضى النصوص، واختلافات الأسلوب في الأسفار الخمسة. لقد أحدث الكتاب فضيحة حتى ولو لم يعد أحد يتبع حجج

وتسعة في الشريعة الكهنوتية «ما عدا الزيادات الموزعة بين ثمانية مؤلفين كما كتب الأب دوفو» وقد توصل البعض في تاريخ أكثر حداثة إلى التفكير بأنه «كان لكثير من الأنظمة أو من شرائع الأسفار الخمسة ما يوازيها خارج التوراة مما هو أسبق بكثير من التواريخ التي قد تنسب إلى الوثائق»، وأن «عدداً من روايات الأسفار الخمسة يفترض بينة أخرى أقدم من التي ظهرت فيها هذه الوثائق» وهذا ما يوصلنا إلى الاهتمام «بتكوين التقاليد» فالمسألة تبدو إذن على مستوى من التعقيد بحيث لا يهتدي معه أحد للتعرف إليها.

إن تعدد المصادر يستدعي الخلافات والتكرارات الكثيرة. ويعطي الأب دوفو أمثلة على تداخل التقاليد المختلفة المتعلقة بالخلق وذريات قايين، والطوفان، وخطف يوسف «عليه السلام» ومغامراته في مصر، واختلافات الأسماء المتعلقة بنفس الشخصية والعروض المختلفة للأحداث المهمة.

وهكذا ظهرت الأسفار الخمسة مشكّلةً من التقاليد المختلفة المجموعة بمهارة من بعض الكتاب الذين وضعوا مراجعهم تارة بعضها إلى جانب بعض، وطوراً غيروا الروايات بهدف تلخيصها مع الابقاء على المستحيلات والتخالفات التي ساقت المعاصرين إلى البحث الموضوعي عن المصادر.

ودونما ريب، فإن الأسفار الخمسة، هي في مجال النقد للنص، المثل الأكثر وضوحاً للتعديلات التي أجراها الناس في مختلف عهود تاريخ الشعب اليهودي، وللروايات الشفوية وللنصوص المأخوذة عن الأجيال الماضية، هذا، وقد بدأ في القرن العاشر أو التاسع قبل المسيح مع الرواية اليهوية، التي أخذت الخبر من أصوله، لم يكن إلا ليرسم المعالم الأولية للمصير الخاص لاسرائيل كما كتبه الأب دوفو «ليعيدها إلى موضعها في مرتسم الله الكبير عن الإنسانية» وقد انتهى في القرن السادس قبل المسيح بالرواية الكهنوتية المهتمة بالتدقيق في ذكر التواريخ والانساب[1].

(١) سنرى في الفصل اللاحق أخطاء كتاب النص الكهنوتي فيما يتصل بقدم الانسان على الارض ومكانته في الزمن وتقلب الخلق. والاخطاء ناتجة بوضوح من تدخل أيدي الناس في النصوص.

ـ الحرف ي يمثل النص اليهوي.

ـ الحرف ك يمثل النص الكهنوتي.

فمثلاً، السطر الأ ول من الجدول:

من الفصل ١ جملة ١ إلى فصل ٢ جملة ١٤ النص الحالي المنشور في التوراة هو النص الكهنوتي.

الكتب التاريخية:

نطالع فيها تاريخ الشعب اليهودي من يوم دخوله أرض الميعاد (المحدد في الأرجح في آخر القرن الثالث عشر قبل المسيح) حتى النفي إلى بابل، في القرن السادس قبل المسيح.

والالحاح هنا منصب على ما يمكن تسميته «الواقع الوطني» المبرز كأنه تحقيق للكلمة الإلهية. وفي الرواية بعض الاستهانة بالدقة التاريخية، فكتاب مثل سفر يشوع خاضع قبل كل شيء لأسباب لاهوتية. وبهذه المناسبة يبرز الأستاذ ادموند جاكوب التناقض المنكشف، بين علم الآثار والنصوص الواردة في معرض ادعاءات تخريب أريحا وعي.

إن كتاب القضاة يدور حول دفاع الشعب المختار بمساعدة الله ضد الأعداء المحيطين به. وقد عدل هذا الكتاب أكثر من مرة. وهو ما يلفت إليه النظر الأب دوليفييفر في مقدمات توراة كراميون. ويشهد لهذا، الاستدلالات المتداخلة والزيادات. وتاريخ روث يرتبط بأخبار القضاة هذه.

إن سفر صموئيل، وأسفار الملوك، هي على الخصوص مجموعات سير صموئيل وشاؤول وداود وسليمان. وقيمتها التاريخية مشكوك فيها. ويرى ادموند جاكوب من هذه الجهة أخطاء كثيرة. إذ يمكن أن تكون الرواية فيها للحادث الواحد روايتين أو ثلاثاً. وللأنبياء، الياس واليسع واشعيا فيها مكانهم الذي تختلط فيه السمة التاريخية مع السمة الأسطورية، بينما يرى شراح آخرون مثل الأب ليفييفر أن «قيمتها التاريخية أساسية».

يقول المؤرخ بأن كاتب السفر الأول والثاني من التاريخات، وأسفار اسدراس ونخميا واحد، كان يعيش في آخر القرن الرابع قبل الميلاد. أنها تحوي تاريخ الخلق برمته حتى ذاك العصر. أما انسابها فلا تمتد إلا إلى داوود «عليه السلام». وبالفعل فإنه يستخدم بالخصوص سفر صموئيل وأسفار الملوك «وينسخها آليا دون أن يهتم بالتناقضات» (ادموند جاكوب) ولكنه يضيف أيضاً كثيراً من الوقائع الدقيقة التي تؤيدها الآثار. في هذه المؤلفات يبرز الاهتمام بتطويع التاريخ لضرورات اللاهوتية. فالكاتب كما يقول ادموند جاكوب «يصنع التاريخ أحياناً

يستمر في منحه حبه [1] وأشعيا صورة من صور التاريخ السياسي لأنه قد سيطر على الأحداث من خلال استشارة الملوك له. فهو نبي العظمة، يضاف إلى أعماله الشخصية نشر نبواته بواسطة تلاميذه حتى القرن الثالث قبل المسيح، منها احتجاجات ضد البغاة، وخوف من محاسبة الله، ونبأ التحرر وقت المنفى ونبأ في فترة أكثر تأخراً عن عودة اليهود إلى فلسطين.

وإنه لمن المؤكد بأنه في كتابي أشعيا الثاني والثالث هذين ظهر بجلاء تضاعف الجهد السياسي. وقد انطلق وعظ ميخا المعاصر لاشعيا من نفس هذه الأصول الفكرية العامة.

وقد اشتهر في الوعظ في القرن السابع قبل المسيح كل من صنيا وأرميا وناحوم وحبقوق. وقد استشهد أرميا الذي ربما كان مؤلف المراثي.

وفي مطلع القرن السادس قبل المسيح، بعث النفي إلى بابل نشاطاً نبوياً عظيماً. ويعتبر حزقيل الذي زرع في أخوته الرجاء، وجهاً عظيماً للمعزي. ورؤاه مشهورة، وكتاب عبيدياس متصل بمآسي القدس المحتلة.

وقد عاد النشاط النبوي بعد المنفى الذي انتهى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد مع عجي وزكريا للحث على إعادة بناء الهيكل. وما أن انتهى البناء وهو ما كتب تحت اسم ملخيا حتى احتوى التنبؤات الروحية المختلفة.

ولماذا اندمج كتاب يونان في كتب النبوة في حين أن العهد القديم لم ينسب إليه نصوصاً في المعنى الحرفي للكلمة. إن يونان قصة يستخلص منها مبدأ أساسي هو ضرورة الخضوع للإرادة الإلهية.

وفي رأي الشراح المسيحيين أن دانيال رؤيا مشوشة تاريخياً مكتوبة في لغات ثلاث (العبرية والأرامية واليونانية) انه مؤلف يعود إلى القرن الثامن قبل المسيح في عصر مكابي، أراد فيه الكاتب حفاظاً على إيمان مواطنيه اقناعهم (في فترة الحزن الكريه) بأن زمن الخلاص قريب.

---

(١) هذا الكلام يعبر عن المفهوم الديني لدى المسيحية فقط وليس له أي وجود في مفاهيمنا الدينية الاسلامية «المترجم».

من الكتابات، مثل المراثي، وكتابات حكمة سليمان «عليه السلام» أو كتابي أيوب «عليه السلام».

وسنرى بعيداً أن المسيحية المدروسة جيداً من الكتاب المعاصرين مثل الكاردينال دانييلو، وقد كانت في أول الأمر اليهودية ــ المسيحية، قد تلقت بصورة طبيعية هذا الميراث من العهد القديم الذي ارتبط به كتاب الأناجيل إلى حد بعيد، قبل أن تخضع للتحول بتأثير بولس.

ولو شذبت الأناجيل فحذف منها غير الصحيح، لما أمكن الظن بوجوب تحقيق نفس عملية الفرز للعهد القديم، ولقبل الكل أو ما هو قريب منه (١).

ومن كان يجرؤ على المعارضة أياً كانت لهذا الخليط الذي يعوزه الانسجام حتى نهاية القرون الوسطى، وفي الغرب على الأقل. ومع ذلك فقد ظهرت مع نهاية القرون الوسطى حتى بداية الأزمان المعاصرة بعض الانتقادات كما رأينا فيما سبق. بيد أن الكنائس كانت تنجح دائماً في فرض نفوذها. ولقد ظهر حقاً في أيامنا نقد أصيل للنص. ولكن المختصين به من الاكليركيين رصدوا كثيراً من الجهود لفحص خليط من النقاط التفصيلية وفضلوا عدم الامعان فيما يسمونه بلياقة، صعوبات. إنهم لم يظهروا أبداً مندفعين لدراستها في ضوء المعارف المعاصرة. وإننا إذا شئنا عقد مقارنات تاريخية ــ ولا سيما ــ عندما يظهر التوافق بينها وبين الروايات.. التوراتية ــ لا نلتزم بعد خطة مقارنة صريحة ــ ومعمقة مع الأفكار العلمية التي نرى أنها تفضي إلى الاعتراض على الفكرة التي لم تزل مسلمة في حقيقة الكتابات اليهودية ــ المسيحية (٢).

---

(١) هذا القول وان كان يؤكد المعنى السابق. الا انه بالنسبة الينا كمسلمين نؤمن بأن رسالة الاسلام هي خاتمة الرسالات وأنها ناسخة لما قبلها لما اعتراه من تبديل وتحريف، وانها جاءت بالقول الفصل لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، مهم جداً فليفتح العقلاء قلوبهم وليبصروا الحق!! «المترجم».

(٢) أليس مثل هذا القول يدعو إلى اعادة النظر في كثير مما ينسب إلى أنه حقائق؟ أليس يشكل خطوة بصيرة ورشيدة إلى الحق؟! وهل سيزيل كثيراً من الغشاوات التي لحقت بالعيون لتبصر بجلاء وترى بوضوح؟! «المترجم».

وهاك مثلاً بارزاً:

يعزم الله كما في سفر التكوين، قبل الطوفان تماماً، بأن يحدد منذ ذلك الزمن عمر الإنسان حتى ١٢٠ سنة «عمره لن يكون إلا مئة وعشرين سنة» كما هو مكتوب. ثم يرد بعد ذلك في سفر التكوين أيضاً (١١-١٠-٣٢) طول عمر الواحد من العشرة المنحدرين من نوح يتراوح بين (٤٠٠-٦٠٠) أنظر اللائحة التي صورت فيها في هذا الفصل (ذرية نوح حتى ابراهيم). وتفسير هذا التناقض الجلي بين هذين النصين بسيط، لأن النص الأول من سفر التكوين (٣، ٦) نص يهوي يعود دونما شك كما سبق ورأينا إلى القرن العاشر قبل المسيح، بينما النص الثاني من سفر التكوين (١١-١٠-٣٢) نص أكثر حداثة (القرن السادس قبل المسيح) هو من الرواية الكهنوتية التي هي أصل هذه الانساب التي هي إلى الدقة عند السرد لمدد الأعمار بمثل ما هي عليه من الاستحالة عندما نأخذها جملة واحدة.

ففي سفر التكوين تناقضات صريحة مع العلم المعاصر، وهي تقع في ثلاث نقاط أساسية.

أ ــ خلق العالم ومراحله.
ب ــ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.
جـ ــ رواية الطوفان.

خلق العالم:

إن سفر التكوين كما نبه الأب دوفو «يبدأ بروايتين متقاربتين عن الخلق» وينبغي إذا شئنا اختبار مطابقتهما للمعطيات العلمية اختبار كل واحدة منهما على حدة.

الرواية الأولى للخلق:

تشغل الرواية الأولى الفصل الأول والآيات الأولى من الفصل الثاني، إنها صرح من الأخطاء في نظر العلم.. ينبغي مواجهة نقدها مقطعاً بعد مقطع. مع العلم بأن النص المسوق هنا هو من ترجمة المدرسة التوراتية في القدس.

الآيات: ٦-٨:

«وقال الله ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فصنع الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد فكان كذلك. وسمى الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوم ثان».

وأسطورة المياه تتتابع هنا مع فصلها إلى طبقتين بواسطة جلد يسمح بتسرب المياه كما هي رواية الطوفان من فوق الجلد لتنصب على الأرض. إن هذه الصورة لانشطار المياه إلى كتلتين غير مقبولة عملياً.

الآيات: ٩-١٣:

«وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد، وليظهر اليبس فكان كذلك. وسمى الله اليبس أرضاً ومجتمع المياه بحاراً ورأى الله ذلك أنه حسن».

وقال الله «لتنبت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً وشجراً مثمراً يخرج ثمراً بحسب صنفه بزره فيه على الأرض فكان كذلك. فأخرجت الأرض نباتاً عشباً يبزر بزراً بحسب صنفه، وشجراً يخرج ثمراً بزره فيه بحسب صنفه. ورأى الله ذلك أنه حسن.. وكان مساء وكان صباح يوم ثالث».

وكون الأرض في عصر ما من تاريخها مغمورة بالماء، ثم ظهور اليبس منها، مقبول تماماً علمياً.. بيد أن ظهور وجود نباتي شديد التنظيم، مع تكون من الحب قبل وجود الشمس «وهكذا سيكون كما يقول سفر التكوين في اليوم الرابع» وكذلك تحقق تعاقب النهار مع الليل فشيء ليس له أساس.

الآيات من ١٤-١٩:

«وقال الله لتكن نيرات في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون نيرات في جلد السماء لتضيء على الأرض. فكان كذلك. وضع الله النيرين العظيمين، النير الأكبر لحكم النهار. والنير الأصغر لحكم الليل والكواكب. وجعلها اثلة في جلد السماء لتضيء على الأرض،

الآيات: ٢٤-٣١:

«وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض بحسب أصنافها فكان كذلك، فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها وكل دبابات الأرض بحسب أصنافها. ورأى الله ذلك أنه حسن» «وقال الله لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه[1] ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وطير السماء وجميع الحيوان الداب على الأرض، وقال الله ها قد اعطيتكم كل عشب يبزر بزراً على وجه الأرض كلها وكل شجر فيه ثمر يبزر بزراً يكون لكم طعاماً. ولجميع وحش الأرض وجميع طير السماء وجميع ما يدب على الأرض مما فيه نفس حية جميع بقول العشب جعلتها مأكلاً. فكان كذلك. ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسن جداً. وكان مساء وكان صباح يوم سادس».

هذا وصف لانهاء الخلق الذي عدد فيه الكاتب كل الخلائق الحية غير المذكورة سابقاً، وعرض للمواد المختلفة التي سخرت للناس والحيوانات.

والخطأ ــ وقد سبق ورأيناه ــ وهو بذكر ظهور الحيوانات الأرضية بعد الطيور. بيد أن ظهور الإنسان على الأرض بعد ظهور أصناف أخرى من الكائنات الحية كان في موضعه الصحيح. ورواية الخلق تنتهي بالآيات الثلاث الأولى من الفصل الثاني.

«فأكملت السموات والأرض وجميع جيشها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي خلقه الله ليصنعه هذه مبادىء السموات والأرض إذ خلقت يوم صنع الرب الاله الأرض والسموات».

---

(١) هذا يخالف ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء..﴾ ويخالف ما عليه جمهور المسلمين قديماً وحديثاً.

الخلق مسوقة بمظهر منطقي ديني بارز، ولكن بطريقة، تسمح لمعطيات العلم بوصفها بأنها مسوقة حسب الهوى.

هذا الإنجاز، في إطار أسبوع، لمراحل متلاحقة للخلق الذي يقصد به الكاتب الكهنوتي استثارة الممارسة الدينية، غير مقبول من وجهة النظر العلمية.

واننا لنعلم تماماً، في أيامنا، بأن تكوين العالم والأرض، الذي سنتكلم عنه فيما بعد في الجزء الثالث من هذا الكتاب، بمناسبة ذكر معطيات القرآن المتعلقة بالخلق، قد أنجز في مراحل ممتدة في عهود زمنية متطاولة جداً، لا تسمح المعطيات المعاصرة بتحديد مداها حتى التقريبي. بل ولو انتهت الرواية في مساء اليوم السادس... ولم تذكر اليوم السابع يوم السبت الذي استراح فيه الله[1]، بل حتى ولو كان كما هو الحال بالنسبة للرواية القرآنية، قد سمح بالاعتبار بأن المراد في الواقع، فترات غير محددة، لا أيام بمعناها الحرفي، فإن ذلك كله لا ينقص من ضرورة رفض الرواية الكهنوتية، لأن تتابع هذه الأحداث هو في تناقض صريح مع القيم العلمية الأولية.

وهكذا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق، وكأنها البناء الخيالي الحاذق، هدفه شيء آخر غير التعريف بالحقيقة.

الرواية الثانية:

والرواية الثانية للخلق الموجودة في سفر التكوين، التي هي بمثابة التكملة للرواية السابقة من دون تعليق لا توحي بالانتقادات نفسها.

ولنذكر، بأن هذه الرواية هي من تاريخ أقدم بثلاثة قرون تقريباً. وهي مسافة زمنية قصيرة جداً. إنها أكثر امتداداً على خلق الإنسان وجنة الأرض، من امتدادها على خلق الأرض والسماء التي نذكرها باختصار شديد: «في الوقت الذي صنع يهواه الاله الأرض والسماء، لم تكن بعد نبتت شجرة حقل على الأرض، ولا عشبة حقل، لأن يهوه الاله لم ينزل المطر عليها ولم يكن فيها

---

(١) جل الله وتعالى عن ذلك (المترجم).

ولا ريب في أنه يطلب تصحيح حسابات الزمن التي تحددت أصلاً بسنوات قمرية في الوقت الذي كان فيه التقويم الغربي مرتكزاً على السنوات الشمسية. ولكن التصحيح المطلوب اجراؤه إذا ما أردنا أن نكون في غاية الدقة، والذي هو ٣ بالمئة ليس ذا أهمية. بل من الأفضل كي لا نعقد الحسابات، الإمساك عنه، خصوصاً وأن الذي يعتد به هنا، هو المقياس التقريبي. ولا يهم إذا كان عدد ملايين السنين محسوباً بحساب تقديري يخطىء في ثلاثين سنة. ولنقل، حتى نكون أشد قرباً من الحقيقة، أننا نحدد وضع خلق العالم في هذا التقدير العبري بنحو سبعة وثلاثين قرناً تقريباً قبل المسيح.

فماذا يعلمنا العلم الحديث؟! إنه لمن الصعوبة بمكان الاجابة عما يتعلق بتكوين العالم. وكل ما يمكننا تحديده هو عصر تكوين النظام الشمسي القابل بأن يوضع في الزمن بصورة تقريبية مقنعة. والمقدر أن الزمن الذي يفصلنا عنه هو أربعة مليارات ونصف من السنين. وهكذا نقيس إذن الخط الذي يفصل الحقيقة المؤكدة اليوم (والتي سنتوسع فيها في الجزء الثالث من هذا الكتاب). عن المعطيات المستخلصة من العهد القديم، والتي تنطلق من الاختبار الدقيق للتوراة. وقد جمع سفر التكوين معلومات دقيقة جداً عن الزمن الممتد ما بين آدم وابراهيم. ولكن المعلومات المستخلصة عن الفترة الممتدة ما بين ابراهيم والعصر المسيحي غير كافية، وينبغي اكمالها بمصادر أخرى.

١ ــ من آدم حتى ابراهيم:

يقدم سفر التكوين في انسابه من الفصل (٤، ٥، ١١، ٢١، ٢٥) معطيات دقيقة جداً عن كل أجداد ابراهيم في خط مستقيم حتى آدم، مقدماً عمر كل واحد، عمر الأب عند ولادة الابن. وتسمح بيسر بتأكيد تواريخ ولادة ووفاة كل جد بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مبين في اللائحة التالية:

الكهنوتي من سفر التكوين، وهو النص الوحيد الذي يعطي تدقيقات من هذا النوع. ونستخلص منه أن مولد ابراهيم هو حسب التوراة بعد آدم بـ ١٩٤٨ سنة.

٢ ــ من ابراهيم حتى العصر المسيحي:

لا تقدم التوراة لهذه الفترة أي خبر مرقوم، قابل لأن يؤدي إلى تقويم دقيق مثل الذي قدمه سفر التكوين عن أسلاف ابراهيم «عليه السلام». ولتقدير الزمن الذي يفصل ابراهيم عن المسيح «عليهما السلام»، ينبغي الرجوع إلى منابع أخرى. ويوضع عصر ابراهيم «عليه السلام» حالياً، قبل المسيح «عليه السلام» بثمانية عشر قرناً تقريباً مع التساهل في بعض الخطأ. ولو حسب هذا التقدير على أساس تعليمات سفر التكوين، عن الزمن الذي يفصل ابراهيم عن آدم «عليهما السلام»، لكان ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح، وهو خطأ دونما جدال، آت من الخطأ الوارد في التوراة عن دوام الفترة بين آدم وابراهيم «عليهما السلام»، التي يعتمد عليها التقليد اليهودي لتثبيت تقويمه. ويمكن اليوم، مجابهة المدافعين التقليديين عن الحقيقة التوراتية، بتناقضها مع المعطيات العصرية لهذه التقديرات المبنية على هوى الأحبار اليهود في القرن السادس قبل المسيح «عليه السلام». هذه التقديرات التي اتخذت أساساً خلال قرون طويلة لموقع الأحداث الزمني القديم بالنسبة إلى المسيح «عليه السلام».

لقد طبع قبل العصر الحديث، العديد من نسخ التوراة التي قدمت إلى القراء، مع مقدمات توضيحية لتواريخ الاحداث التي تسلسلت منذ خلق العالم حتى العصر الذي طبعت فيه، فكانت الارقام تختلف قليلا تبعاً للعصور. فالترجمة اللاتينية لعام ١٦٢١ مثلا، تقدم أمثال هذه التعليمات، واضعة إبراهيم «عليه السلام» قبل بقليل، وواضعة الخلق في القرن الاربعين قبل المسيح «عليه السلام» تقريباً. وتوراة والتون المتعددة اللغات، والمطبوعة في القرن الثامن عشر، تقدم للقارىء زيادة عن نصوص التوراة في لغات عدة، لوائح مماثلة لما هو مثبت هنا لأسلاف إبراهيم «عليه السلام». وكل التقديرات تكاد تتفق مع كل الأرقام المقدمة هنا. وعندما اطل العصر الحديث لم يعد بمقدور الناشرين التمسك بمثل هذه التأريخات الخاضعة للهوى، من دون التصادم مع الاكتشافات العلمية،

الطوفان

خصصت الفصول ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين لرواية الطوفان. وبصورة أدق لروايتي الطوفان، لأن هناك روايتين غير موضوعتين الواحدة إلى جانب الاخرى. بل البعض الآخر من الفصول في تلاحم ظاهري خلال تتابع مختلف المراحل. والحق انها مفرقة في مقاطع متداخل بعضها ببعض. وفي هذه الفصول الثلاثة تناقضات جلية يمكن تفسيرها بأنها ناتجة عن وجود مصدرين متمايزين:

المصدر اليهوي، والمصدر الكهنوتي، وقد رأينا سابقاً أنهما يشكلان خليطاً متناثراً. فكل نص أصلي قد قطع إلى فقرات أو إلى جمل. وعناصر أحد المصدرين تتوالى مع عناصر المصدر الآخر، حتى أن المرء ليضطر خلال مئة سطر تقريباً من النص الفرنسي، إلى الانتقال في الرواية من مصدر إلى آخر سبع عشرة مرة. والرواية في مجملها هي ما يلي:

لما كان فساد الناس قد عم، فقد عزم الله على افنائهم مع جميع الخلائق الاخرى.. فأخبر نوحاً «عليه السلام» وأمره بأن يصنع فلكاً، وأن يحمل فيه زوجته وأولاده الثلاثة مع زوجاتهم الثلاث وغيرهم من المخلوقات الحية الاخرى. والمصدران يختلفان بالنسبة إلى هذه الاخيرات. فبينما يشير في مقطع من الرواية (هو من أصل كهنوتي) أن نوحاً «عليه السلام» قد أخذ معه زوجاً من كل نوع، يثبت في مقطع آخر (من أصل يهوي) ان الله أمره بأن يحمل معه من الحيوانات الطاهرة فقط سبعة من كل نوع ذكراً وأنثى، ومن الحيوانات النجسة زوجاً واحداً. ولكن بعد ذلك بقليل يثبت أن نوحاً «عليه السلام» لم يدخل معه في الفلك إلا زوجاً واحداً من كل واحد من الحيوانات. والاختصاصيون مثل الاب «دوفو»، يؤكدون بأن المعنى هو مقطع من الرواية اليهودية المحرفة[١].

---

(١) انا كمسلمين نعتقد بما ورد في القرآن ولا نزيد وهو قوله تعالى: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون﴾ وأما هذه الاخبار فيمكن الاستفادة منها استئناساً لا على أنها حقائق (المترجم).

الانساني؟! هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن هذه الرواية كل سمة من سمات الحق.

وبالاضافة إلى ما سبق، فإن المعطيات التاريخية تبرهن على تناقضها مع المعارف الحديثة. فهي تضع إبراهيم «عليه السلام» فيما بين سنة ١٨٠٠ و١٨٥٠ قبل المسيح «عليه السلام». واذا كان الطوفان كما يوحي به سفر التكوين في انسابه، يقع قبل ثلاثة قرون تقريباً من إبراهيم «عليه السلام»، فينبغي أن يقع في القرن الواحد والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح. وهذا الزمن (الذي تسمح المعارف العلمية بتأكيده) ازدهرت فيه في عديد من المناطق على الارض مدنيات انتقلت آثارها إلى الاجيال اللاحقة.

وللتمثيل على ذلك نسوق الفترة التي سبقت المملكة الوسطى (٢١٠٠ قبل المسيح) تقريباً في مصر. وهي تاريخ المرحلة الأولى المتوسطة قبل الاسرة الحادية عشرة، بينما كانت في بابل الاسرة الثالثة لأور. ونحن نعرف تماماً بأنه لم يكن ثمة من انقطاع في هذه المدنيات، وبالتالي ليس من فناء عام أصاب الانسانية جمعاء كما أرادته التوراة.

وعلى هذا فانه لا يمكن اعتبار الروايات الثلاث للتوراة كما لو كانت حاملة للناس سرداً للوقائع مطابقاً للحقيقة، لاننا لا يسعنا إذا كنا موضوعيين الا التقرير بأن النصوص التي هي موضع الحديث، والتي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة. وهل يمكن أن يكون الله قد أوصى بشيء غير الحقيقة؟! انه لا يمكننا تصور أنه يعلم الناس بواسطة الاوهام، بل الاوهام المتناقضة فوق ذلك!! الامر الذي ينتهي بنا إلى الوصول بصورة طبيعية إلى اثارة افتراض تشويه حصل بواسطة الناس، أو تقاليد نقلت حرفياً من جيل إلى جيل، أو نصوص بعد تثبيت هذه التقاليد.

وعندما نعلم أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد حرف مرتين على الاقل في مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش بأن نجد فيه مستحيلات أو روايات غير متفقة مع حقيقة الاشياء منذ أن أمكن أن يسمح تقدم المعارف الانسانية بأن نحصل على الاقل، إذا لم نعرف كل شيء، من خلال بعض الاحداث على معرفة كافية لنقدر على الحكم بدرجة ما عليه الروايات القديمة المختصة بها من التوافق معها.

وان عدداً مهماً من الشراح المسيحيين، استحسنوا تأويل أخطاء وتناقضات ومستحيلات الروايات التوراتية مقدمين العذر الذي برر للكتاب التوراتيين بأن يتخذوا لانفسهم صفة العوامل الاجتماعية لثقافة أو فكر مختلفين وهو ما انتهى إلى تعريف «الاساليب الادبية» الخاصة. وادخال هذا الاسلوب يغطي بمنطق الشراح الفطن كل الصعوبات. اذ يعلل كل تناقض بين نصين باختلاف طريقة التعبير لدى كل كاتب «واسلوبه الادبي» الخاص. ولا ريب ان الحجة غير متبناة من الجميع لافتقارها الى الجدية. ولكن مع ذلك لم يوقف العمل بها في أيامنا. وسنرى عند الكلام على العهد الجديد، كيف سيكون تعسف البعض في تأويل التناقضات الموجودة في الاناجيل.

على أن ثمة طريقة أخرى، لو طبقت على النص المجادل فيه، تحمل على قبول ما يرفضه المنطق، وهي بأن يحاط هذا النص باعتبارات تبريرية، فيصرف انتباه القارىء عن الموضوع الجوهري لحقيقة الرواية بالذات لينصب على مسائل أخرى.

وتنتمي إلى هذا الاسلوب في التعبير، أفكار الكاردينال «دانييلو» في الطوفان التي نشرت في مجلة «الله الحي» (١) تحت عنوان: «طوفان، معمودية، حساب». فقد كتب «ان أقدم تقليد لدى الكنيسة رأى في لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة» وهذا «فصل ذو معنى سام» «حكم يصيب الجنس البشري بأسره» وبعد أن ذكر «اوريجين» الذي يتكلم في عظاته عن «حزقيل» عن «غرق العالم كله الذي نجا بالفلك» يعرض لقيمة العدد ثمانية «بأنه يفسر عدد الاشخاص الذين نجوا بالفلك ــ نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم ــ» انه يتبنى ما قد كتبه مسيحنا بعد أن بعث من الاموات». ويكتب بأن «نوحاً المولود الاول في خلق جديد، صورة للمسيح الذي حقق ما كان نوح قد رمز إليه» ويتابع المقارنة بين نوح الذي أنجاه خشب الفلك، والماء الذي جعله يعوم من ناحية، وبين ماء العمادة من ناحية أخرى: «ماء الطوفان الذي ولدت منه انسانية جديدة» وخشب الصليب. لقد ألح على قيمة هذه الرمزية، وختم وهو يبرز «ثروة سر الطوفان الروحية والتعليمية».

---

(١) رقم ٣٨، ١٩٤٧ ص ٩٥-١١٢.

الذي يمارسه المعاصرون» كما لو كان قادراً على ايجاد طرق عدة في كتابة التاريخ. فرواية التاريخ بطريقة غير صحيحة تصبح ــ وكل الناس يعرفون ذلك ــ قصة تاريخية. ولكنها هنا تفلت من الاقيسة المتحدرة من أفكارنا، فيرفض شراح التوراة كل تدقيق لنصوص التوراة من علم الجيولوجيا أو علم الباليونتولوجيا(١) ومعطيات ما قبل التاريخ. فقد كتب يقول بأن «التوراة لا تخضع لأي من هذه القوانين. واذا أريد مقابلتها مع معطيات هذه العلوم فلا يمكننا الوصول إلا إلى مجابهة غير حقيقية أو إلى توافق مصطنع»(٢) وينبغي أن يلاحظ بأن سبب هذه الافكار هو أن ما في سفر التكوين غير متفق مطلقاً مع معطيات العلم المعاصر، وبخاصة الاحد عشر فصلاً الاوائل. ولكن إذا كانت بعض الروايات قد حققت تماماً في أيامنا، ولا سيما بعض روايات عهد الاباء، فان الكاتب لا يقصر على استدعاء المعارف الحديثة لمساندة الحقيقة التوراتية. وقد كتب(٣) «ينبغي ان تخضع الشكوك التي تناولت هذه الروايات للشهادة المناسبة التي قدمها التاريخ وعلم الا ثار الشرقيان»، وأيضاً «إنا نستعين بالعلم إذا كان نافعاً في تثبيت رواية التوراة، أما اذا كان يدحضها فانا نرفض الرجوع إليه».

ولكي يوفق بين المختلف، أعني نظرية صحة التوراة مع سمة عدم صحة بعض الوقائع المسوقة في روايات العهد القديم، عكف علماء اللاهوت المحدثون على مراجعة المفهومات الكلاسيكية للصحة. واننا نخرج عن اطار هذا الكتاب لو قدمنا عرضاً مفصلاً للاعتبارات الدقيقة الموسعة طويلاً في مؤلفات باحثة في صحة التوراة كما في «أو. لوريتز» سنة ١٩٧٢ «ما هي حقيقة التوراة». فلنكتف اذن بذكر هذا الحكم المتعلق بالعلم.

لقد ذكر الكاتب بأن مجمع الفاتيكان الثاني «امتنع عن تقديم القواعد التي يمكن التفريق بها بين الخطأ والصواب في التوراة. وان اعتبارات أساسية تظهر أن هذا غير ممكن، لان الكنيسة لا تستطيع أن تقرر صحة أو بطلان الطرائق العلمية فتحل مبدئياً وبوجه عام مشكلة الحقيقة في الكتب المقدسة».

---

(١) علم آثار القطع الحيوانية أو النباتية القديمة.

(٢) مدخل سفر التكوين صفحة ٣٥.

(٣) صفحة ٣٤.

في شروح الوثيقة الرسمية بتوقيع المطران «ويبر» جملة تصحح بوضوح تأكيد عجز بعض النصوص المحتواة في الاعلان الرسمي للمجمع «بعض كتب التوراة الاسرائيلية هي دونما شك ذات طابع مؤقت وفيها بعض النقص».

«العجز» عبارة من الاعلان الرسمي ليست مرادفة بالتأكيد «للطابع المؤقت» وهي عبارة الشارح. وأما صفة الاسرائيلية المزادة بصورة عجيبة من هذا الأخير فتوحي بان النص المجمعي انتقد النصوص العبرية الوحيدة، في حين أن العهد القديم هو في الواقع الذي كان وقت المجمع هدف المناقشة في نقص وعجز بعض أجزائه.

الأناجيل

يحتار كثير من قراء الانجيل، بل ويقلقون عندما يتأملون معنى بعض القصص، أو عندما يقارنون بين مختلف الروايات للحادث الواحد الذي يجدونه في عدد من الاناجيل، وهو ما لاحظه الاب روغيه في كتابه (مدخل إلى الانجيل) الذي استطاع فيه أن يقيس لدى مراسليه اهمية القلق المثار من تلاميذهم بحكم تجربته الكبرى التي أفاده بها عمله الذي شغله مدى سنين طويلة، مكلفاً بالاجابة في مجلة أسبوعية كاثوليكية على قراء الانجيل، هؤلاء الذين اقلقتهم النصوص. لقد لاحظ أن طلبات الاستيضاح من محاوريه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية متغايرة جداً تنصب على نصوص «وجدت غامضة غير مفهومة، بل متضادة ومستحيلة ومضطربة» فما من شك اذن ان قراءة النصوص الكاملة للاناجيل قابلة بأن تحدث لدى المسيحيين اضطراباً عميقاً.

ان مثل هذه الملاحظة هو حديث الزمن فقد نشر كتاب الاب روغيه في سنة ١٩٧٣، وفي أوقات ليست بعيدة جداً، وقد كانت غالبية المسيحيين لا تعرف من الاناجيل سوى مختارات تقرأ عند الصلوات، أو مشروحة عند الوعظ. وباستثناء حالة البروتستانتيين الخاصة، لم تكن قراءة الاناجيل في جملتها خارج هذه المناسبات أمراً متداولاً. ولم تكن كتب التعليم الديني تحوي منها إلا مقتطفات، والنص الكامل لم يكن متداولاً أبداً. وفي مجرى دراساتي الثانوية في معهد كاثوليكي، وضعت بين يدي كتب «فيرجيل، وأفلاطون» ولكن لم يوضع بين يدي العهد الجديد مطلقاً، رغم أن النص اليوناني له كان مفيداً جداً. وقد أدركت متأخراً لما لم نكلف بترجمة الكتب المقدسة المسيحية، فقد كان يمكن أن تسوقنا إلى طرح أسئلة على اساتذتنا تحيرهم الاجابة عليها.

لقد كان بالامكان لو كان ثمة فكر ناقد عند القراءة الكاملة للاناجيل، ان تدفع هذه الامور التي تنكشف لنا، الكنيسة للتوسط ولمساعدة القراء لتخطي ما

وإن «أ. تريكو» في معجمه الصغير عن العهد الجديد من توراة كراميون «مؤلف ذو انتشار واسع طبعة ١٩٦٠»[١] لم يخصص مادة للصعود. ان لائحة الاناجيل الاربعة للابوين بوفوا وبواسمار الاستاذين في المعهد التوراتي للقدس «طبعة ١٩٧٢»[٢] تعرفنا في جزئها الثاني صفحة «٤٥١-٤٥٢» بأن التناقض بين ما لدى انجيل لوقا وأعمال الرسل يفسر «بمهارة ادبية» وليفهم من يسعه الفهم!!

ومن المرجح كثيراً أن الاب روغيه لم يتبن في مدخله إلى الانجيل سنة ١٩٧٣ صفحة ١٨٧ مثل هذه الحجة. غير أن التفسير الذي قدمه لنا هو على الاقل ــ فريد:

«هنا كما في حالات كثيرة مماثلة، لا تبدو المسألة مستعصية إلا إذا تناولنا حرفياً تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معناها الديني. وليس المراد تذويب حقيقة الوقائع في رمزية مائعة، بل بحث الفكر اللاهوتي الذي لدى أولئك الذين يوحون الينا بالاسرار وهم يكشفون لنا وقائع محسوسة، واشارات تخص الجذور المحسوسة لفكرنا».

كيف يمكن الاكتفاء بمثل هذا الشرح؟ ان عبارات تمجيد من هذا النوع لا توصل إلا إلى العموميات.

وفائدة تحقيق الاب روغيه هي في رأيه أن ثمة «كثيراً من الحالات المشابهة» للصعود في الاناجيل. فمن الضروري تناول المسألة بشكل عام في العمق وبموضوعية تامة. ويبدو من الحكمة البحث عن تفسيرات بدراسة الظروف التي كتبت فيها الاناجيل، والمناخ الديني الذي هيمن في هذا العصر. وكشف تحريفات المؤلفات الاولى المحققة اعتباراً من الروايات الشفوية، وتغييرات النصوص اثناء نقلها الينا، تخفض من دهشة وجود الفقرات الغامضة، وغير المفهومة والمتضادة وغير الحقيقية التي تصل أحياناً إلى حد الاستحالة، أو المتناقضة مع الحقائق التي يثبتها في أيامنا التقدم العلمي. وشبيه هذه الملاحظات هو علامة المشاركة البشرية في التحرير ثم في التحريف اللاحق بالنصوص...

---

(١) . Deseleécteie

(٢) . Editunde Cerf

عودة تاريخية اليهودية ــ المسيحية والقديس بولس

يعتقد غالبية المسيحيين أن الاناجيل الاربعة كتبت من الشهود المعايشين لحياة المسيح الذين رتبوا من هذا الواقع شهادات لا ريب فيها عن الاحداث التي شغلت وجوده ووعظه. كيف يمكن مناقشة المعلومات المستخرجة منها مع مثل هذه الضمانات لاصالتها؟

وكيف يمكن أن نضع موضع الشك صلاحية مؤسسة الكنيسة بتطبيق تعليمات عامة معطاة لها من المسيح نفسه؟ ان طبعات الاناجيل الحالية الموضوعة بين يدي العموم، تحتوي على شروح مخصصة لنشر هذه المفاهيم عليهم.

لقد كانت تقدم إلى المؤمنين، صفة الشهود العيان لمؤلفي الاناجيل، على أنها أمر مسلم به. ألم يصف القديس جوستين الاناجيل، في منتصف القرن الثاني بأنها مذكرات الرسل؟ ثم تعلن التدقيقات العديدة عن الكتاب الذين يتساءل كيف يمكن الشك بانضباطهم؟ لقد كان متى شخصية معروفة جداً. وكان «مستخدماً في مكتب المكوس أو الجمارك في كفرناحوم» وكان مشهوراً بمعرفته الآرامية واليونانية. كما كان مرقس معروفاً جداً كمساعد لبطرس. فلا شك في أنه كان شاهد عيان له. وقد كان لوقا «الطبيب العزيز» الذي يتحدث عنه بولس. والمعلومات عنه دقيقة جداً. ويوحنا هو الرسول الدائم القرب من المسيح. انه ابن زبيدى صياد بحيرة جينيزاريت Génésareth.

على أن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية توضح أن هذا الاسلوب لتقديم الاشياء لا يتفق مع الواقع أبداً. وسنرى ما كان من مؤلفي الاناجيل. وينبغي أن يعرف فيما يخص عشرات السنين التي تلت رسالة المسيح بأن الاحداث لم تجر مطلقاً كما قيل، وان مجيء بطرس إلى روما لم يركز أبداً الكنيسة على أسسها، بل على العكس لقد شاهدنا خلال أكثر من قرن، بين الفترة التي ترك فيها المسيح هذه الارض وحتى منتصف القرن الثاني، معركة بين اتجاهين: بين ما يمكن أن نسميه المسيحية البولسية، واليهودية ــ المسيحية.

وهنا يذكر الكاردينال دانييلو كتابات يهودية ــ مسيحية مترجماً الرؤى عن مسيح هذه الطائفة التي شكلت ابتداء حول الرسل، انجيل اليهود [منقولاً عن طائفة يهودية ــ مسيحية مصرية] ورسامو كليمان، والمعارف الكليمنتية ورؤيا يعقوب الثانية وانجيل توما وإلى هؤلاء اليهود ــ المسيحيين يجب من دون ريب ربط أقدم آثار الادب المسيحي التي يذكرها بالتفصيل الكاردينال دانييلو.

«ولم تكن هيمنة اليهودية ــ المسيحية طيلة القرن الاول للكنيسة فقط في القدس وفلسطين، بل كانت رسالتها منتشرة في كل مكان سابقة على الرسالة البولسية. وهذا ما يفسر، لماذا شكلت رسائل بولس دونما **انقطاع حضاً على نزاع**» أولئك كانوا الخصوم أنفسهم الذين كانوا يرون في كل مكان من جالاتيا، وكورنثيا وكولوسيكا وروما وانطاكية.

والساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى انطاكية هو يهودي ــ مسيحي «كما تشهد به أعمال الرسل وكتابات كليمنتين» أما في آسيا الصغرى، فقد ثبت وجود اليهود ــ المسيحيين في الرسائل الى الكالات والكولوسيين لبولس. وقد عرفت كتابات بابياس باليهودية ــ المسيحية لفريجي. وأول رسالة من بولس للكورنثيين نوهت في اليونان بوجود يهود ــ مسيحيين في أبولوس على الخصوص. ان روما «مركز مهم» كما تفيد رسالة كليمان وراعي هرمياس. ويشكل المسيحيون في رأي سوباتون وتاسيت مذهباً يهودياً. ويذهب الكاردينال دانييلو إلى أن أول أَنْجَلَةٍ لافرقيا كانت يهودية ــ مسيحية. وأن أنجيل العبرانيين وكتابات كليمان الاسكندري يرتبطان بها.

من المهم أن نعرف هذه الوقائع لندرك في أي جو من النزاع بين الطوائف كتبت الاناجيل، ولتوضيح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر، حوالي سنة ٧٠، في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام، وان اليهود ــ المسيحيين، كانوا ما برحوا هم المسيطرين، ولكن في سنة ٧٠ انقلب الوضع مع الحرب اليهودية وسقوط القدس. والكاردينال دانييلو يوضح السقوط كما يلي:

لما كان اليهود قد ضعفوا في الامبراطورية، فقد اتجه المسيحيون الى الانفصال

اليهودية، قضي عليهم في الغرب سريعاً. وتتبعت آثارهم في الشرق من القرن الثالث حتى الرابع، وبخاصة في فلسطين والجزيرة العربية وشرق الاردن وسوريا، وبلاد ما بين النهرين، واندمج بعضهم في الاسلام الذي كان وريث قسم من تعاليمهم، بينما ارتبط البعض الاخر بأرثوذكسية الكنيسة الكبرى محتفظين بترسب ثقافي سامي. ولا يزال شيء منها موجوداً في الكنيسة الاثيوبية والكلدانية».

أيضاً «مذكرات الرسل». وتأكيدات من هذا النوع، هي مع الاسف منتشرة بشكل يكفي أن تكون معه معلومات الجمهور الكبير عن تاريخ مجموعة الاناجيل خاطئة.

وقد ظلت الأناجيل تشكل كلاً طيلة أكثر من قرن، بعد نهاية رسالة المسيح، وليس في وقت سابق. والترجمة المسكونية للتوراة تحدد الوقت الذي منحت فيه الاناجيل الاربعة سمة النص القانوني بأنه في حوالي سنة ١٧٠.

وسنرى أيضاً بأن تأكيد جيستان الذي يصف كتّابها بالرسل لم يعد مقبولاً اليوم.

بينما يؤكد أ. تريكو، بالنسبة إلى تاريخ تحرير أناجيل متى ومرقس ولوقا بأنها قد كتبت قبل السنة السبعين. وهذا غير معقول، اللهم الا فيما يخص مرقس. وهو يجتهد بعد كثيرين في أن يبرز كتاب الاناجيل كرسل أو أصحاب للمسيح. وبهذا يقدم تاريخ تحريرها فيجعله قريباً جداً من العصر الذي عاش فيه المسيح. وأما بالنسبة إلى يوحنا الذي أخبر عنه أ. تريكو بأنه عاش حتى سنة ١٠٠ تقريباً، فقد اعتاد المسيحيون بمناسبات رسمية، منذ القدم، أن ينظروا إليه على أنه قريب جداً من المسيح. غير أنه من الصعب التأكيد بأنه كاتب الانجيل الذي يحمل اسمه. فالرسول يوحنا [مثل متى] عند أ. تريكو، وعند شراح آخرين، هو الشاهد المعتمد المختص فيما قصه من الوقائع، بينما غالبية النقاد لا يتبنون الافتراض الذي يعتبر بمقتضاه محرر الانجيل الرابع.

وإذا لم يكن بالامكان اعتبار الاناجيل الاربعة، موضوع البحث، «كمذكرات» للرسل أو لصحابة المسيح، فما هو أصلها اذن؟!

ذكر كولمان في كتابه «العهد الجديد»[١] في هذا الموضوع، ان الانجيليين ما كانوا إلا «المعبرين عن رأي الجماعة المسيحية البدائية التي ثبّتت الرواية الشفوية... فقد ظل الانجيل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجوداً بشكل عام بصورة شفوية. وعليه فإن الرواية الشفوية هي التي نقلت على الخصوص كلمات

---

(١) Presses universitaires de Frances 1967 .

الاناجيل. مع أنا على العكس نستطيع قراءة ما يلي:

«انه لا يخفى على أحد، بأن بين الكتابات المقدسة حتى كتابات العهد الجديد، امتيازاً بارزاً مستحقاً للاناجيل، اذ تُمثّل الشهادة العظمى على حياة وتعليم الكلمة المتجسدة وهي منقذنا. وقد حفظت الكنيسة دوماً وفي كل مكان الاصل الرسولي للاناجيل الاربعة. وما وعظ به الرسل في الحقيقة بناء على تعليمات المسيح أنفسهم والناس الذين أحاطوا بهم قد نقلوه الينا بالهام الهي من الروح في كتابات هي أساس الايمان لمعرفة الانجيل ذي الاشكال الاربعة في متى ومرقس ولوقا ويوحنا».

«وقد أكدت أمنا الكنيسة المقدسة، وتؤكد بحزم وبمثابرة عظمى أن الاناجيل الاربعة التي أكدت دونما تردد صفتها التاريخية، تنقل بأمانة ما فعله وعلمه المسيح ابن الله [1] طيلة حياته بين الناس من أجل السلام الخالد حتى اليوم الذي رفع فيه الى السماء.. فالكتاب المقدسون ألفوا الاناجيل الاربعة بحيث يكشفون لنا فيها دوما عن المسيح أشياء حقيقية وصادقة».

هذا هو التأكيد دونما اشتباه لامانة النقل بواسطة الاناجيل لافعال وكلمات المسيح.

ولا نجد مطلقاً تطابقاً بين هذا التأكيد الصادر عن المجمع والتأكيد الصادر عن الكتاب المذكورين سابقاً، وعلى الخصوص الاب كَتَنْقِسّر الذي يقول:

«لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأناجيل، فهي «مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» «أوردها الكتاب خطياً روايات جماعاتهم عن المسيح».

ان الاناجيل نصوص «تندمج في أوساط مختلفة، ملبية حاجات الكنائس معبرة عن تفكير في الكتب المقدسة، مصححة الأخطاء، ومجيبة حتى في المناسبة على حجج الخصوم. هكذا جمع الانجيليون كل ما نقل اليهم رواية وكتبوها حسب

---

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً القائل: ﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ المؤمنون آية ٩١-٩٢. (المترجم).

انجيل متّى

يشغل انجيل متّى المكانة الاولى بين الاناجيل الاربعة، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد. وهذا مثبت تماماً لأن هذا الانجيل، في صورة ما، ليس إلا امتداداً للعهد القديم. انه قد كتب ليعرف بأن «عيسى عليه السلام يكمل تاريخ اسرائيل» كما يفيد شراح الترجمة المسكونية للتوراة، التي سنقتطف منها استعارات واسعة. ولذلك فان متّى يذكر دوماً بمقتبسات من العهد القديم ليظهر أن عيسى «عليه السلام» هو مسيح اليهود المنتظر.

يبدأ هذا الانجيل بنسب المسيح[1] ويرجعه إلى ابراهيم بواسطة داود. وسنرى فيما بعد خطأ النص المسكوت عنه من عامة الشراح. على أن نية متّى كانت واضحة بأن يقدّم دفعة واحدة، بهذا السرد، الاتجاه العام لكتابه. انه يتابع نفس الفكرة مبرزاً دائماً موقف عيسى «عليه السلام» من القانون اليهودي المرتكز على الاسس الكبرى التالية: صلاة، صوم، صدقة.

يريد عيسى «عليه السلام» أن يوجه تعليمه أولاً، وبالافضلية، إلى شعبه، فيقول الى الاثني عشر رسولاً: «لا تسلكوا طريقاً إلى الوثنيين، ولا تدخلوا مدينة للسامريين[2]، بل اذهبوا نحو الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٠، ٥-٦] «لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٥، ٢٤] وفي ختام الانجيل يعرض متى لكل الاوطان رسالة تلاميذ المسيح الاوائل معطياً اياهم من هذا التوجيه «فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم» [متى ٢٨، ١٩] ولكن ينبغي تفضيل الذهاب نحو «بيت اسرائيل» ويقول أ. تريكو عن هذا الانجيل «من

---

(١) سنعالج التضاد مع النسب في انجيل لوقا في فصل خاص.

(٢) كانت التوراة والاسفار الخمسة مرجع قانون السامريين الديني. وكانوا ينتظرون ظهور المسيح. وكانوا أمناء على أكثر ملاحظات اليهودية. ولكنهم اسسوا معبداً مضاراً لمعبد القدس.

يستشف منه محاورة كتابية ضد اليهودية المعبدية الأرثوذكسية للفريسيين كما يتم ظهورها في المجموعة اليهودية في جامينا حول السنوات ٨٠. في هذه الظروف كثير من الكتاب هم الذين يؤرخون الانجيل الاول للسنوات ٨٠-٩٠ أو قبل ذلك بقليل. ولا يمكن الوصول إلى وثوق كامل في هذا الموضوع. فهل يناسب، نظراً لعدم التعرف بدقة إلى اسم الكاتب، الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في الانجيل ذاته؟ فالكاتب يعرف بمهنته، وهو حال كونه ملماً بالكتابات المقدسة والروايات اليهودية، وعارفاً وموقراً وسائلاً بقسوة رؤساء شعبه الدينيين، ومتجاوزاً كخبير في فن التعليم وفي تعريف سامعيه بعيسى «عليه السلام»، ملحاً دوماً على العواقب التطبيقية لتعليمه، يجيب نوعاً ما ببيان أديب يهودي، أصبح مسيحياً وسيد بيت «الذي ينزح من كنزه الجديد والقديم» كما يذكر متّى في [١٢، ٥٢]. اننا بعيدون جداً عن العامل في مكتب كفرناحوم المدعو ليفي من قبل مرقس ولوقا، والذي أصبح أحد الرسل الاثني عشر.

ان العالم كله متفق على أن متّى كتب انجيله نقلاً عن مصادر مشتركة مع مرقس ولوقا. ولكن روايته اختلفت، وفي مسائل أساسية كما سنراه فيما بعد. ومع ذلك فقد استخدم متّى انجيل مرقس استخداماً موسعاً، في الوقت الذي لم يكن فيه تلميذاً لعيسى «عليه السلام» [كولمان].

ويلاحظ بأن متّى تصرف بالنصوص بحرية جادة فيما يخص العهد القديم عند ذكر نسب عيسى «عليه السلام» الذي صدر به انجيله، فأدخل في كتابه روايات لا تصدق. كما وصفه الاب كَنْثِيسِّر في المؤلف المشار إليه سابقاً في حادث قيامة عيسى «عليه السلام» بخصوص الحرس، وذكر استحالة قصة الحراس العسكريين للقبر «هؤلاء الجنود الوثنيون» الذين «لم يذهبوا للتقرير إلى رؤسائهم في التسلسل التدريجي، بل إلى كبار الكهنة الذين دفعوا لهم الاجر ليفتروا الاكاذيب» وزاد أيضاً «وينبغي الامتناع عن الهزء. فقد كانت نية متّى محترمة جداً لأنه يدمج على طريقته احدى المعطيات القديمة للرواية الشفوية في مؤلفه المكتوب. ولكن إخراجه يبقى لائقاً «بعيسى المسيح النجم»[١].

---

(١) فيلم اميركي عن عيسى متنكر لتاريخه.

ويسكت شراح الاناجيل غالباً أمام هذه الواقعة. أما الاب روغيه فيبرز الاستحالة لأنه يقول بأن عيسى «عليه السلام» «لم يبق في القبر» إلا ثلاثة أيام [بينها يوم واحد كامل فقط] وليلتان. ولكنه يضيف «ان العبارة جامدة ولا تعني غير ثلاثة أيام» وانه لما يخيف ملاحظة اتجاه بعض الشراح لاستخدام مثل هذه الحجج التي لا تثبت شيئاً في الوقت الذي يرضي الفكر فيه بالايعاز بأنه يمكن أن تكون مثل هذه الفاحشة ثمرة غلطة كاتب!

وزيادة عما يختص به انجيل متى من الاستحالات، فإنه قبل كل شيء انجيل طائفة يهودية ــ مسيحية، هي على خلاف مع اليهودية، وانفصال عنها، مع بقائها في خط العهد القديم. وله من وجهة نظر تاريخ اليهودية ــ المسيحية أهمية معتبرة.

انجيل مرقس

انه أقصر الاناجيل الاربعة وأقدمها، ولكنه ليس كتاب رسول. وكل ما فيه أنه كتاب محرر من تلميذ رسول.

لا يعتبر كولمان مرقساً تلميذاً لعيسى «عليه السلام». ولكنه ينبه مع ذلك أولئك الذين يبدو لهم أن نسبة هذا الانجيل إلى الرسول مرقس أمر مشكوك فيه فيقول: «ان متى ومرقس ما كانا ليستخدما هذا الانجيل كما فعلا لو لم يعلما بأنه مؤسس حقيقة على تعليم رسول». ولكن هذه حجة غير قاطعة. ويذكر كولمان أيضاً في دعم تحفظه الذي يبديه، الروايات المكررة في العهد الجديد «ليوحنا الملقب بمرقس» ولكن هذه الروايات لا تتضمن ذكر كاتب الانجيل. ونص مرقس ذاته لا يذكر الكاتب.

ولقد ساق فقر المعلومات في هذه النقطة، بعض الشراح الى اعتماد ما يضحك من التفاصيل على أنها عناصر ذات قيمة، مثل هذا التفصيل، بدعوى أن مرقس هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في روايته للآلام حادث شاب يلبس قطعة قماش، ولا يلبس سواها، فلما أوقف ترك القطعة وهرب عاريا [مرقس ١٤، ١٥-٥٢] فقد استخلص البعض من هذا أن الشاب المعني، يمكن أن يكون مرقس «التلميذ

«ثم صعد الجبل ودعا الذين أرادهم، فأقبلوا عليه. فأقام منهم اثني عشر يصحبونه فيرسلهم مبشرين ولهم سلطان يطردون به الشياطين. وأقام الاثني عشر وهم سمعان ودعاه صخراً» [مرقس ٣، ١٣-١٦].

انه بالنسبة لبعض الوقائع على خلاف مع متّى ولوقا كما ذكرنا ذلك سابقاً بمناسبة آية يونان. بل هو أكثر من ذلك بمناسبة آيات عيسى «عليه السلام» التي أعطاها للناس خلال رسالته، يروي حادثة لا تصدق [٨، ١١-١٢].

«فأقبل الفريسيون وأخذوا يجادلونه طالبين آية من السماء ليجربوه. فتنهد من أعماق نفسه وقال: «ما بال هذا الجيل يطلب آية؟ الحق أقول لكم؟ لا يجعل لهذا الجيل آية. وتركهم وعاد إلى السفينة فركبها وعبر إلى الشاطىء المقابل».

أنه تأكيد آت من عيسى «عليه السلام» نفسه. وهو ينوي بألا يأتي أي عمل يمكن أن يبدو خارقاً للعادة. ولذلك فإن شراح الترجمة المسكونية للانجيل حين يندهشون من اعلان مرقس بأن عيسى «عليه السلام» لن يعطي سوى آية واحدة هي آية يونان [انظر انجيل متى] يرون «من الغريب» أن يقول مرقس:«ان هذا الجيل لن تكون له آية» في الوقت الذي لاحظوا فيه بعد ذلك «المعجزات التي يقدمها عيسى «عليه السلام» نفسه كآيات» [لوقا: ٧، ٢٢-١١-٢٠].

ان مجمل انجيل مرقس معتمد رسمياً بأنه قانوني. ومع ذلك فالقسم الاخير منه [١٦-٩، ٢٠] يعتبره الكتاب المحدثون عملاً مضافاً. وتشير إلى هذا، الترجمة المسكونية اشارة قاطعة.

ان هذا القسم الاخير غير موجود في المخطوطين الكاملين للاناجيل واللذين هما أكثر قدماً [وهما مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء] اللذين يرجعان إلى القرن الرابع. وقد كتب كولمان بهذا الصدد يقول: «ان مخطوطات يونانية أكثر حداثة وبعض نصوص اضافت الى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقس، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى» والواقع أن نصوص هذا القسم الأخير المضاف، كثيرة. وفي النصوص مقطع طويل تارة، ومقطع قصير أخرى [الاثنان واردان في الترجمة المسكونية] وتارة يكون المقطع الطويل مقترناً باضافة، وطوراً المقطعان..

وثنياً اهتدى إلى المسيحية. ويظهر اتجاهه ازاء اليهود بسرعة، كما يشير إلى ذلك كولمان، إذ يقول: إن لوقا يتجاهل الايات الاكثر يهودية لدى مرقس، ويبرز كلمات عيسى «عليه السلام» ضد كفر اليهود، وعلاقاته الحسنة بالسامريين الذين كان يكرههم اليهود، في حين، كان متّى يجعل المسيح ــ كما رأينا ــ يطلب من الرسل البعد عنهم. وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الانجيليين كانوا يقوّلون المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية فيقدمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح، النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها.. وكيف يمكن أمام مثل هذه الواضحات، الانكار بأن الاناجيل لم تكن «كتب النضال» أو «المناسبات» التي تثأر؟ وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من انجيل لوقا وانجيل متّى كان الدليل على ذلك!

من هو لوقا؟ لقد أريد تعريفه بأنه طبيب حامل لهذا الاسم. ذكره بولس في بعض رسالاته. والترجمة المسكونية تشير إلى أن «الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الانجيل من دقة وصفه للمرضى». وهذا التقدير مبالغ فيه، لأن لوقا لم يعط «وصفات» من هذا النوع بالذات «والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل انسان مثقف في زمانه». ولقد كان يلازم بولس في سفره رفيقٌ اسمه لوقا. فهل هو نفس هذه الشخصية؟! هذا ما يراه كولمان.

هذا ويمكن تقويم تاريخ انجيل لوقا بتأثير عوامل مختلفة. فهو قد استعان بانجيل مرقس ومتّى. ويبدو كما نقرأ في الترجمة المسكونية، انه عرف حصار القدس وتهدمها من قبل جيش تيتوس سنة ٧٠، الامر الذي يجعلنا نقدر بأن هذا الانجيل اذن متأخر عن هذا التاريخ. غير أن الدراسات الحاليّة تحدد تحريره بأنه كان غالباً، ما بين سنتي ٨٠ و٩٠، وان كان كثيرون ينسبونه إلى تاريخ أقدم.

وروايات لوقا المتعددة تبرز اختلافات هامة مع روايات سابقيه. وقد أشرنا سابقاً إلى بعضها، والترجمة المسكونية تشير إليها في الصفحة ١٨١ وما بعدها. ويذكر كولمان في كتابه العهد الجديد صفحة ١٨، روايات من انجيل لوقا غير موجودة في غيره ولا يقصد بذلك النقاط التفصيلية.

على أن أخبار انجيل لوقا عن طفولة عيسى «عليه السلام» هي خاصة به،

الاول لم يكن لوصف الاعمال في حقيقتها المادية» وان الاب كَنْتِفْسِّر مقارناً روايات وأعمال الرسل من عمل لوقا نفسه مع روايات وأعمال مماثلة لبولس عن عيسى القائم من الموت، أعطى هذا الرأي في لوقا فقال: «لوقا أكثر الانجيليين الاربعة حساسية وأدباً. انه يمثل كل صفات القصاص البارع».

انجيل يوحنا

يختلف انجيل يوحنا في الأصل عن الثلاثة الاخر، إلى درجة أن الاب روغيه قال عنه في كتابه «مدخل إلى الانجيل» بعد شرح الثلاثة الاوائل، وبعبارة جامعة معبرة: «انه عالم اخر» انه في الحقيقة كتاب فريد جداً، اختلاف في النظام العام، في اختيار الموضوعات والاخبار والخطب، اختلافات في الاسلوب، في الجغرافية والتاريخ، بل واختلاف في الرؤى اللاهوتية (كولمان). وهكذا فان يوحنا ينقل كلمات عيسى «عليه السلام» اذن بشكل مختلف عن الانجيليين الاخرين. وينبه الاب روغيه بهذه المناسبة إلى أنه في الوقت الذي تنقل فيه اللوائح كلمات المسيح باسلوب «مؤثر أكثر قرباً من الاسلوب الشفوي» فانها عند يوحنا في التأمل لدرجة «انا نستطيع أن نتساءل أحياناً عما إذا كان عيسى «عليه السلام» هو الذي يتكلم، أو أن أحاديثه قد وسعت دونما شعور من الانجيلي».

من هو الكاتب؟ انه سؤال موضوع جدال. اذ الاراء تختلف كثيراً في هذا الموضوع، فيذهب أ. تريكو والاب روغيه مع الذين لا يداخلهم أدنى شك إلى أن انجيل يوحنا هو عمل شاهد عيان. انه يوحنا بن زبيدى، وأخو يعقوب الرسول المعروف عنه كثير من التفاصيل المنشورة في المؤلفات العامة. والصورة الشعبية تمثله قريباً من عيسى «عليه السلام»، كما في زمن العشاء السري قبل الآلام. ومن يتصور أن انجيل يوحنا ليس من عمل يوحنا الرسول الذي عمت صورته الجميع؟

وكتابة هذا الانجيل الرابع في زمن متأخر ليس حجة مقبولة ضد هذا الموقف. ويظهر أن النص النهائي له، وقد كتب نحو نهاية القرن الاول. وتحديد موعد الكتابة هذه بعد ستين سنة من المسيح، يتفق مع وجود رسول في شرخ الشباب زمن عيسى عاش حوالي القرن.

وهكذا فان الكاتب يوسع الاسطر غالباً، ويقوّل عيسى «عليه السلام» تاريخاً ما كان الروح القدس قد أوحى اليه بالذات» وهو سبب الاختلاف في نظر هذا المفسر.

وقد ندرك، أنه كان بامكان يوحنا، وقد كتب انجيله بعد الانجيليين الاخرين، اختيار بعض الاخبار الجديرة بخدمة وجهة نظره. ولا ينبغي الاندهاش بألا نرى عند يوحنا كل ما تحتويه الروايات الاخرى. فالترجمة المسكونية تحوي عدداً من الحالات من هذا النوع. [صفحة ٢٨٢] ولكن الذي يزيد في الدهشة هو بعض النواقص، خصوصاً وان البعض منها يبدو بالكاد قابلاً للتصديق، كخبر تأسيس الافخارستيا. وكيف يمكن التصور بأن حادثاً جوهرياً بالنسبة للمسيحية، سيصبح عامود الطقوس الدينية، وهو القداس، لا يذكره يوحنا الانجيلي التأملي البارع؟! ثم هو يكتفي بأن يصف في قصة العشاء الذي سبق الالام، غسيل أقدام التلاميذ، وخبر خيانة يهوذا، وانكار بطرس له.

وعلى العكس فان هناك روايات خاصة بيوحنا، وغير موجودة في الاناجيل الثلاثة الاخرى، تذكرها الترجمة المسكونية في [صفحة ٢٨٣]. وهنا يمكننا أن نستنتج أيضاً بأن الكتاب الثلاثة لم يكن بامكانهم أن يكشفوا في هذه الوقائع الاهمية التي أمكن يوحنا أن يكشفها. ولكن كيف لا ندهش بأن نجد عند يوحنا رواية ظهور عيسى «عليه السلام» القائم من القبر لتلاميذه على صفحة طبريا [يوحنا ٢١، ١-١٤] التي هي ليست إلا اعادة مع العديد من التفاصيل المضافة لرواية الصيد العجيب المقدم من لوقا [٥، ١-١١] كحادث آت أثناء حياة عيسى الحي. وفي هذا الخبر ينوه لوقا بوجود الرسول يوحنا الذي سيصبح الانجيلي حسب التقليد. هذه الرواية من انجيل يوحنا تؤلف جزءاً من الفصل [٢١] الذي اتفقنا على القول بأنه اضافة لاحقة، ونتصور بيسر ان ذكر اسم يوحنا في رواية لوقا، كان يمكنها أن تدفع لادراجها بطريقة مصطنعة في الانجيل الرابع، والضرورة لذلك بتحويل رواية عيسى الحي إلى رواية يتيمة لم توقف العابث بالنص الانجيلي.

وثمة خلاف هام آخر بين انجيل يوحنا، والاناجيل الثلاثة الاخرى هو مدة مهمة عيسى «عليه السلام». فبينما يحددها مرقس ومتى ولوقا بسنة، فان يوحنا

مصادر الأناجيل

ان النبذة العامة التي قدمناها عن الاناجيل، والمنبثقة عن التحليل النقدي للنصوص، تكون لدينا صورة لأدب «غير مترابط، مفتقر هيكله إلى حسن التتابع» كما «يبدو أن ما فيه من تضاد غير قابل للتذليل» وهي عبارات الحكم المتخذ من مفسري الترجمة المسكونية للتوراة، والذي ينبغي الاستناد إليه ما دامت التقديرات في هذا الموضوع ذات عواقب خطيرة.

ولقد رأينا بأن ثمة معلومات عن التاريخ الديني المعاصر لنشأة الاناجيل قد توضح للقارىء المفكر بعض خصائص هذا الادب المضطرب. ولكن لا بد من توسيع النظر، والبحث فيما قد تعرفنا عليه المؤلفات المنشورة في الفترة المعاصرة عن المصادر التي استمد منها الانجيليون نصوصهم التي كتبوها. كما انه من المهم تحليل ما إذا كان تاريخ النصوص بعد تثبيتها، قابلاً لتوضيح بعض المشاهد التي تقدمها في هذه الايام.

ولقد عولج موضوع المصادر بأسلوب مبسط جداً في عصر آباء الكنيسة. فكانت المخطوطات الكاملة تشهد لانجيل متّى بأنه الاول. كما كان يعتبر بأنه المصدر الوحيد لتاريخ المسيحية في القرون الاولى.

وقد طرحت مسألة المصادر فقط بالنسبة لمرقس ولوقا. أما يوحنا فقد كانت له حالة خاصة. وقد كان القديس أوغسطين يرى بأن مرقس، وهو الثاني في الظهور في ترتيب العرف، قد اقتبس من متى ولخصه، وان لوقا وقد حل ثالثاً في المخطوطات قد استعمل معطيات الاثنين كما هو واضح من مقدمته التي تحدثنا عنها سابقاً.

على أن بامكان شراح هذا العصر أيضاً أن يقوّموا مثلنا درجة تطابق النصوص،

٢ ــ ليس في هذه الصورة اهتمام كاف بالرواية الشفوية التي تبدو أساسية، لأنها وحدها التي احتفظت خلال ثلاثين أو أربعين سنة بكلمات عيسى «عليه السلام» وأخبار رسالته، في الوقت الذي لم يكن فيه كل انجيلي إلا ناقل كلمة الطائفة المسيحية التي ضبطت العرف الشفوي.

وهكذا ندرك أن الاناجيل التي بين أيدينا، نقلت الينا ما كانت الطوائف المسيحية الاولى تعرفه عن حياة ورسالة عيسى «عليه السلام»، كما نقلت الينا اعتقاداتهم وأفكارهم اللاهوتية، وان الانجيليين ما كانوا إلا وسائط نقل لذلك. وقد أوضحت آخر الابحاث الحديثة في النقد النصي عن مصادر الانجيل امتداداً أكثر تعقيداً لتشكيل النصوص. وان لائحة الاناجيل الاربعة الموضوعة من الابوين «بنوا وبوامار» الاستاذين في المعهد التوراتي في القدس [١٩٧٢-١٩٧٣] تبرز تطور النصوص في عدة مراحل بالتوازي مع تطور العرف. وهو ما يؤدي الى نتائج عرضها «الاب بنوا» في هذه الكلمات معرفاً بقسم من كتاب الاب بوامار «[...] ان اشكال الكلمات أو الروايات المستخلصة من تطور مديد للعرف ليس لها نفس الصحة التي كانت لتلك التي هي في الاصل. وان بعض قراء هذا الكتاب سيندهشون أو سينزعجون عندما يعلمون أن كلمة المسيح تلك أو أن ذلك الرمز، أو ذلك الخبر عن مصيره لم تكن ملفوظة كما نقرؤها نحن. بل انها قد نقحت، ثم كيفت من الذين نقلوها الينا. أما بالنسبة إلى الذين لم يألفوا هذا النوع من البحث التاريخي فيمكن أن يكون هذا مصدراً للدهشة بل للفضيحة».

هذه التنقيحات للنصوص وتكييفها من أولئك الذين نقلوها الينا، قد أجريت بأسلوب يقدم لنا «الاب بوامار» صورته المعقدة التي هي تطوير للنظرية المسماة ذات المصدرين. وقد وضعت هذه الصورة بعد عمل من التحليل والمقارنة للنصوص يستحيل تلخيصه. وعلى القارىء الحريص، للحصول على تفاصيل أكثر، أن يرجع إلى الكتاب الاصلي المنشور في باريس من طبعات «دوسرف».

ان ثمة أربع وثائق أصيلة تسمى أ ــ ب ــ ث ــ ك، تمثل المصادر الاصيلة للاناجيل [انظر اللائحة العامة].

فالوثيقة أ: ناشئة في وسط يهودي ــ مسيحي وقد أثرت في متى ومرقس.

الوثائق أ، ب، ث، ك = وثائق اساسية استخدمت في الكتابة.
وساطة متّى = الكتابة الوسيطة لمتّى.
وساطة مرقس = الكتابة الوسيطة لمرقس.
وساطة لوقا = الكتابة الوسيطة للوقا.
وساطة يوحنا = الكتابة الوسيطة ليوحنا.
الكتابات النهائية لمتّى = الكتابات النهائية لمتّى.
الكتابات النهائية لمرقس = الكتابات النهائية لمرقس.
الكتابات النهائية للوقا = الكتابات النهائية للوقا.
الكتابات النهائية ليوحنا = الكتابات النهائية ليوحنا.

وخلاصة كل هذا، أننا لدى قراءتنا الانجيل، لا نوقن بأننا نتلقى كلام عيسى «عليه السلام». وان الاب «بنوا» ليتوجه لقارىء الانجيل، ويحذره من ذلك، ويقدم له بديلاً فيقول: «اذا كان لا بد لاحدنا من التخلي عن سماع الصوت المباشر لعيسى «عليه السلام» في أكثر من حال، فانه يسمع صوت المعلم الكنيسة ويثق بها وكأنها تكلمنا في مجده بعد أن كلمنا قديماً عن الارض».

فكيف يمكن التوفيق بين هذا التأكيد الصريح عن عدم أصالة بعض النصوص، مع عبارة الوثيقة الايمانية عن الوحي الالهي في المجمع الفاتيكاني الثاني التي تؤكد لنا على العكس النقل الامين لعبارات عيسى «عليه السلام»: «هذه الاناجيل الاربعة التي تؤكد الكنيسة دونما تردد تاريخيتها، تنقل بأمانة ما كان عيسى «عليه السلام» ابن الله[1] طيلة حياته قد فعله حقيقة أو علمه الناس لخلاصهم الابدي حتى اليوم الذي رفع فيه إلى السماء» ويبدو جلياً أن عمل المدرسة التوراتية في القدس قد وجه تكذيباً قاسياً إلى إعلان المجمع.

---

(١) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهو القائل: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا ادا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا، ان دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا. ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾. مريم آية ٨٨-٩٥ «المترجم».

على أن غزارة الكتابة عن المسيح حملت الكنيسة، وهي في مرحلة التنظيم على اجراء بعض الحذوفات، وربما كان ما حذف منها قريباً من مئة انجيل؟ وأبقي منها أربعة فقط دخلت في لائحة رسمية لكتابات العهد الجديد وعرفت بأنها «القانون».

وفي منتصف القرن الثاني، دفع «مرقيون» السلطات الكنسية بشدة لتتخذ موقفاً. وكان خصماً عنيفاً لليهود، رفض اذ ذاك العهد القديم كله والكتابات التي تبدو متصلة به، السابقة عليه، أو الناشئة من العرف اليهودي ــ المسيحي. ولم يكن «مرقيون» يعتبر من الاناجيل بعد كتابات بولس إلا انجيل لوقا الذي كان يعتقد بأنه لسان حال بولس.

ولقد اعلنت الكنيسة «مرقيون» هذا مخطئاً، ثم ادخلت كل رسائل بولس في القانون، ولكن مع الاناجيل الاخرى لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا. وأضافت اليها أيضاً رسائل أخرى من أعمال الرسل. ومع ذلك فإن اللائحة الرسمية تغيرت مع الزمن في هذه القرون الاولى من التاريخ المسيحي. وفي الوقت الذي كانت فيه الكتب التي اعتمدها القانون الحالي للعهد الجديد مستبعدة، كانت بعض الكتابات التي اعتبرت في زمن متأخر غير مقبولة «مشكوكاً فيها» سارية ولو بصورة مؤقتة. وقد استمرت هذه الترددات حتى انعقاد مجمعي هِبّون سنة ٣٩٣ وقرطاجة سنة ٣٩٧. وظلت الاناجيل الاربعة معتمدة.

ويرى الاب بوامار، أن مما يؤسف له، غياب كمية ضخمة من الكتابات التي اعتبرتها الكنيسة مشكوكاً فيها، وذلك لما فيها من الفائدة التاريخية، وهو يعطيها في الواقع مكانة في لائحة الاناجيل الاربعة إلى جانب الاناجيل الرسمية. ولقد ظلت هذه الكتب موجودة في المكتبات كما يقول حتى نهاية القرن الرابع.

وهذا القرن هو الذي يمثل فترة جدية لاقرار التنظيم. واليه تعود المخطوطات الكاملة لاقدم الاناجيل. أما الوثائق السابقة من أوراق البردى العائد أكثرها إلى القرن الثالث وإحداها إلى القرن الثاني، فانها لا تنقل الينا إلا بعض النتف. والمخطوطان الاقدمان المكتوبان على الرق، هما مخطوطان يونانيان يعودان إلى القرن الرابع. وهما مجموعة الفاتيكان التي لا نزال نجهل المكان الذي عثر عليها فيه،

وسيرد على هذا القول بأن نصوصاً أخرى يمكن أن تعتمد للمقابلة. ولكن كيف يمكن الاختيار بين المختلفات التي تفسد المعنى وتشوهه؟ هذا واننا ندرك جيداً أن تصحيحاً قديماً جداً لخطاط ما يمكن أن يستدعي نسخاً نهائياً لنص مصحح كذلك. وسوف نتأكد فيما بعد بأن كلمة واحدة من نص يوحنا متعلّق بالبارقليط، يبدّل جذرياً معنى المقطع ويحوّره بكامله من وجهة النظر اللاهوتية.

وإليك ما كتبه كولمان فيما يتعلق بالاختلافات في كتابة العهد الجديد «وينتج عن هذا أحياناً أخطاء غير مقصودة، كأن تسقط من الناسخ كلمة، أو يكتبها على العكس مرتين بالتتابع، أو يغفل عن كتابة جملة بكاملها مسطورة في المخطوط المراد نسخه بين كلمتين متشابهتين وأحياناً باجراء تصحيحات مقصودة، وذلك اما بأن يسمح الناسخ لنفسه بأن يصحح بعض النص حسب أفكاره الشخصية، أو أن يحاول التوفيق بين النص المكتوب ونص مواز له ليقلل قدر الامكان ما فيه من الاختلاف. وبقدر ما تتخلّص كتابات العهد الجديد من بقية الادب المسيحي البدائي تصبح معتبرة ككتابات مقدسة، ويزداد تردّد الناسخين بالسماح لأنفسهم بمثل هذه الاصلاحات في كتابات الذين سبقوهم، فقد ظنوا أنهم ينسخون الاصلي، فاثبتوا بذلك المختلفات احياناً. وأخيراً، فقد كان بعض الناسخين يحشي على هامش النص لتوضيح مقطع غامض، فيأتي الناسخ التالي ويظن أن مثل هذه الكلمة المكتوبة على الهامش كانت منسية عند كتابة المقطع من سابقه، ويفكر بأنه ينبغي اعادتها إلى صلب النص. وهكذا أصبح النص الجديد في بعض الاحيان أكثر غموضاً.

وقد يتحرر خطاطو بعض المخطوطات أحياناً مع النص إلى أبعد الحدود، كما كان من ناسخ أحد المخطوطات الاكثر مهابة بعد المخطوطين المذكورين آنفاً. وهو مجموعة بيتـروكامبـردج العائدة إلى القرن السادس. فانه وقد تأكد من الاختلاف في نسب عيسى «عليه السلام» بين نصي لوقا ومتى، فقد سجل في نسخته لانجيل لوقا النسب الموجود في نص متى. ولما كان هذا النص يحتوي على عدد من الاسماء أقل، فقد ملأه باسماء اضافية [دون أن يراعي اعادة التوازن].

فهل الترجمات اللاتينية مثل ترجمة القديس جيروم [القرن الرابع] والترجمات

الأناجيل والعلم الحديث

فالأناجيل والقرآن، تقدم نفس الخبر عن أصول عيسى[1]. فقد تطورت نشأته في رحم أمه بعيداً عن التأثر بقوانين الطبيعة التي تخضع لها كل الكائنات البشرية. والبويضة التي بذرها مبيض أمه، لم تكن تحتاج إلى مادة التناسل التي كان ينبغي أن تأتي من والده لتشكل الجنين ثم الطفل الحي. والعملية التي توصل إلى ولادة شخص طبيعي دون تدخل عنصر الذكورة تسمى الاخصاب «بارتينوجونيز» التي يمكن أن تلاحظ في عالم الحيوان في بعض الظروف. وهي أيضاً حالة مختلف الحشرات، وبعض غير ذوات الفقرات، وبصورة شاذة بعض فصائل الطيور. وقد تمكن البعض تجريبياً من الحصول لدى ذوات الثديين، وبخاصة عند الأرانب على بداية نمو البويضة دون تدخل مادة التناسل في الجنين، وذلك في مرحلة بدائية للغاية. ولم يستطع الوصول إلى أكثر من ذلك. ولم يعرف لديها أية حالة اكتمل فيها الجنين وأصبح كائناً حياً. وقد كانت مريم أماً عذراء حافظت على عذريتها، ولم يكن لها من ولد غير المسيح ذي الخلق المعجز الخارق للطبيعة[2].

أنساب المسيح:

إن نسبي المسيح الوارد أحدهما في متى، والآخر في لوقا، يطرحان مسائل الصحة والتوافق مع المعطيات العلمية، ومع الأصالة التي تزعج الشراح المسيحيين، لأنهم يرفضون النظر إليها على أنها من نتاج المخيلة الإنسانية، التي ألهمت كتاب

---

(١) ان ما ورد في القرآن عن أصول عيسى محصور في أنه ابن مريم بنت عمران. وان آل عمران يرجعون في ذريتهم إلى ابراهيم الذي يعود أيضاً في ذريته الى آدم بهذا الشكل من الاجمال والايجاز ودون ذكر أي تفصيل مما ذكرته الاناجيل حسب افادة الكاتب. فاذا أراد بالاصول هذا ما ذكرناه، وأن مريم قد حملت بكلمة الله دون أن يمسها بشر. وانه ليس للمسيح أخ ولا أخوات فلا بأس. يقول الله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾. «المترجم».

(٢) تذكر بعض الاناجيل احياناً اخوة لعيسى واخوات: متى ١٣، ٤٦-٥٠ و٥٤-٥٨ ومرقس ٦، ١-١٦ ويوحنا ٧، ٣، ٢، ١٢ والعبارات اليونانية المستعملة: أدلفوا، أدلفي. تعني اخوة واخوات في المعنى الطبيعي. ولعل هنا على التأكيد نقصاً في الترجمات لكلمات من أصل سامي معناها العائلي دونما زيادة. ولعله يراد هنا الاقرباء.

١٥ ــ سليمان	: أنجب روبين
١٦ ــ روبين	: أنجب آبيا
١٧ ــ آبيا	: أنجب آصا
١٨ ــ آصا	: أنجب جوزفات
١٩ ــ جوزفات	: أنجب يورام
٢٠ ــ يورام	: أنجب أوزياس
٢١ ــ أوزياس	: أنجب يوثان
٢٢ ــ يوثان	: أنجب آشاص
٢٣ ــ آشاص	: أنجب إيزيشياص
٢٤ ــ إيزيشياص	: أنجب ماناسا
٢٥ ــ ماناسا	: أنجب عمون
٢٦ ــ عمون	: أنجب يوزياس
٢٧ ــ يوزياس	: أنجب زخونياس وإخوته

وهنا كان النفي إلى بابل وأما بعد النفي إلى بابل:

٢٨ ــ زخونياس	: أنجب سلاثيل
٢٩ ــ سلاثيل	: أنجب زورو بابل
٣٠ ــ زورو بابل	: أنجب عبيود
٣١ ــ عبيود	: أنجب إليخيم
٣٢ ــ إليخيم	: أنجب آصر
٣٣ ــ آصر	: أنجب صدوق
٣٤ ــ صدوق	: أنجب آخيم
٣٥ ــ آخيم	: أنجب إليود
٣٦ ــ إليود	: أنجب العازار
٣٧ ــ العازار	: أنجب ماثان
٣٨ ــ ماثان	: أنجب يعقوب
٣٩ ــ يعقوب	: أنجب يوسف خطيب مريم التي ولد منها عيسى «عليه السلام»

ابن عبير ٦٣، بن سالا ٦٤، بن خينام ٦٥، بن ارفخشذ ٦٦، بن سام ٦٧، بن نوح ٦٨، بن لمك ٦٩، بن متوشلح ٧٠، بن اينوخ ٧١، بن ايريث ٧٢، بن ملاييل ٧٣، بن خينام ٧٤، بن اينوش ٧٥، بن شيث ٧٦، بن آدم ٧٧، بن الله ٧٨»[١].

وتبدو هذه الأنساب أكثر وضوحاً عندما توضح في لائحتين، تعرض الأولى النسب قبل داود والثانية تعرضه بعده:

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. المترجم.

ـ اللائحة الثانية ـ

أنساب المسيح قبل داود وبعده كما وردت في متى

لم يذكر متى أي	
اسم قبل ابراهيم	
بعد داود	
بعد النفي إلى بابل	
١	ابراهيم
٢	اسحاق
٣	يعقوب
٤	يهوذا
٥	فارص
٦	حصروم
٧	آرام
٨	عميناداب
٩	نحشون
١٠	سلمون
١١	بوز
١٢	عوبيد
١٣	إيشا
١٤	داود
١٥	سليمان
١٦	روبين
١٧	آبيا
١٨	آصا

١٩	جوزفات
٢٠	يورام
٢١	اوزياس
٢٢	يوثان
٢٣	آشاص
٢٤	ايزيشياص
٢٥	مانا سى
٢٦	عمون
٢٧	يوزياس
٢٨	زخونياس
	النفي إلى بابل
٢٩	سالا ثيل
٣٠	زورو بابل
٣١	عبيود
٣٢	إليخيم
٣٣	آصر
٣٤	صدوق
٣٥	آخيم
٣٦	اليود
٣٧	اليعازار
٣٨	ماثان
٣٩	يعقوب
٤٠	يوسف
٤١	عيسى

١ ــ من آدم حتى ابراهيم.
٢ ــ من ابراهيم حتى داود.
٣ ــ من داود حتى عيسى.

١ ــ مرحلة آدم حتى ابراهيم:

بما أن متى قد ابتدأ بالنسب من ابراهيم، فهو هنا غير مقصود. ولكن المقصود هو لوقا لأنه هو وحده الذي يقدم لنا معلومات عن أجداد ابراهيم حتى آدم. وقد عثر منها في سفر التكوين كما يقال على تسعة عشر من أصل عشرين «الفصل ٤، ٥، ١١».

فهل يمكن أن نتصور بأنه ليس قبل ابراهيم من أنساب الكائنات البشرية إلا تسعة عشر أو عشرين جيلاً؟! لقد درس هذا الموضوع بمناسبة الحديث عن العهد القديم. وإذا شئنا الرجوع إلى لائحة ذرية آدم المثبتة حسب سفر التكوين والمتضمنة للملاحظات المرقومة بالزمن والعائدة إلى النص التوراتي، فإن الواضح أن تسعة عشر قرناً تقريباً قد خلت ما بين ظهور الإنسان على الأرض وولادة ابراهيم. ولئن كان التقدير حالياً، بان ابراهيم كان يعيش في حدود سنة ١٨٥٠ قبل المسيح فإنا نستنتج من ذلك بأن الإشارات المقدمة من العهد القديم تحدد ظهور الإنسان على الأرض قبل ثمانية وثلاثين قرناً من ولادة المسيح. وقد تأثر لوقا في إنجيله بوضوح بهذه المعطيات فصدم الحقيقة بنقله لها بشكل واضح. وقد رأينا من قبل أية أدلة تاريخية حاسمة أوصلت إلى هذا التأكيد.

ولئن كانت معطيات العهد القديم في هذا الموضوع غير مقبولة من زماننا فذلك معقول لأنها تقع في المجال المتقادم الذي ذكره المجمع الفاتيكاني الثاني. ولكن أخذ الإنجيليين بالاعتبار المعطيات غير المتفقة مع العلم هو ملاحظة شديدة الغرابة تجابه المدافعين عن تاريخية نصوص الإنجيل.

وقد أحس الشراح بهذا الخطر، فحاولوا تخفيف هذه الصعوبة بقولهم بأنه لا يراد من هذا شجرة نسب كامل، وأن أسماء قد سقطت من بعض الإنجيليين.

ولندع جانباً تحريف مجموعة «بيتر وكامبردج» الصريح فيما يخص لوقا. ولنقارن بين ما ينقله لنا المخطوطان الأكثر احتراماً. مجموعة الفاتيكان ومجموعة سيناء.

في النسب الذي يسوقه لوقا بعد داود صاحب الرقم [٣٥] حتى عيسى ذي الرقم [٧٧] اثنان وأربعون اسماً متتالية. وفي النسب الذي يسوقه متّى سبعة وعشرون اسماً مذكورة بالتتابع بعد داود ذي الرقم [١٤] حتى عيسى «عليه السلام» ذي الرقم [٤١] فعدد أجداد عيسى «عليه السلام» [المفترضين] مختلف فيه إذن فيما يسبق داود في كلا الإنجيلين. بل أن الأسماء نفسها مختلفة.

يضاف إلى ذلك كما يقول متّى بأنه اكتشف أن نسب عيسى «عليه السلام» ينقسم اعتباراً من ابراهيم «عليه السلام» إلى ثلاث مجاميع مكونة كل واحد منها من أربعة عشر اسماً: المجموعة الأولى من ابراهيم حتى داود «عليهما السلام». والمجموعة الثانية من داود «عليه السلام» حتى النفي إلى بابل. والثالثة من المنفى حتى عيسى «عليه السلام». ويحوي نصه فعلاً أربعة عشر اسماً في كل من المجموعتين الأوليين. غير أنه في المجموعة الثالثة التي هي من المنفى حتى عيسى «عليه السلام» لا يحوي سوى ثلاثة عشر اسماً فقط لأن القائمة ترى أن «سلاثيل» هو صاحب الرقم [٢٩] وعيسى «عليه السلام» هو صاحب الرقم [٤١] فلا يوجد تنويه من متّى يذكر أربعة عشر اسماً لهذه المجموعة.

وأخيراً تصرف متّى بنص العهد القديم لينجح بالحصول على أربعة عشر اسماً في مجموعته الثانية. إن أسماء ذرية داود «عليه السلام» الستة الأوائل من [١٥-٢٠] متطابقة مع معطيات العهد القديم. ولكنه أخفى بمهارة اسم ذرية «يورام» الثلاثة رقم [٢٠] الذي يقول عنهم الكتاب الثاني التاريخي للتوراة، بأنهم: «أشاسيا» و «يواس» و «أماتسيا». بل أن «جيخونياس» رقم [٢٨] هو عند متى ابن «يوزياس» رقم [٢٧] ولكنه في التوراة في الكتاب الثاني للملوك هو «الياخيم» الذي ينبغي وضعه بين «يوزاس» و «جيخونياس».

وهكذا يظهر بأن متّى حرف سلسلة النسب التي في العهد القديم ليقدم

ويلقي الكاردينال «دانييلو» الحرمان على أولئك الذين ينتقدون وجهة نظره هذه «انها كما يقول ــ العقلية الغربية، وتجاهل اليهودية ــ المسيحية، وغياب المفهوم السامي، كل ذلك ضلل الشراح في تفسير الأناجيل. انهم أخرجوا مذاهبهم الأفلاطونية والديكارتية والهجلية، والهيدجرية، فكل شيء فيهم مضطرب في فكرهم». وإنه لواضح بأن أفلاطون وديكارت وهيجل وهيدجر ليسوا بشيء بالنسبة للنقد الذي يمكن أن يوجه إلى هذه الأنساب الموضوعة حسب الهوى.

ولقد استرجع هذا الكاتب مفهوم [١٤] ثلاث مرات، الذي عند متّى، وتوسع بافتراضات غريبة لا يمكننا إلا أن نوردها. يقول: «يمكن الانطلاق من عشرة أسابيع عادية للرؤية اليهودية. فتطرح منها الثلاثة الأوائل المناسبة للزمن الممتد من آدم حتى ابراهيم، فيبقى سبعة أسابيع من السنين. والستة الأوائل من هذه السبعة التي هي ست مرات سبعة تمثل المجموعات الثلاث من الأربعة عشر. أما السابع فإنه قد افتتح بعيسى الذي افتتح معه العهد السابع للعالم» مثل هذه التفسيرات في غنى عن أي تأويل!

هذا ويقدم لنا أيضاً شراح الترجمة المسكونية للعهد الجديد ــ أساليب متنوعة لتبرير ذلك، تعتمد الأرقام في الوقت الذي هي غير منتظرة، فيقولون في تفسير الرمز الذي يطرحه متّى وهو [٣] مرات [١٤].

أ ــ أربعة عشر يمكن أن تكون الكلمة العددية لثلاثة أحرف غير صوتية، تشكل اسم داود «عليه السلام» في العبرية. د: تساوي ٤ و، و:تساوي: ٦ ومنها ٤+٦+٤=١٤.

ب ــ ثلاث مرات أربعة عشر تساوي ست مرات سبعة «وعيسى «عليه السلام» أطل في الأسبوع السادس من التاريخ المقدس الذي بدأ مع ابراهيم».

تعطي هذه الترجمة عند لوقا سبعة وسبعين اسماً من آدم حتى عيسى «عليه السلام». وهو ما يسمح بعودة تدخل الرقم [٧] كقاسم لـ: ٧٧ [٧×١١=٧٧] فيظهر إذن أن العدد المتغير بحذف أسماء أو بإضافة أسماء هو لائحة من سبعة وسبعين اسماً، يبقى لها حتماً ميزة الخضوع لهذه الألعاب الرقمية.

ولعل أنساب عيسى «عليه السلام» في الإنجيل هي الموضوع الأهم الذي أثار بهلوانيات الشراح المسيحيين الفلسفية البارزة بنسبة تصرفات لوقا ومتّى المستندة إلى الهوى.

هذا وتختلف روايات الآلام بصورة عامة فيما بين الانجيليين وبخاصة بين الاناجيل الثلاثة الاوائل وانجيل يوحنا. ويشغل العشاء الاخير للمسيح والآلام في انجيل يوحنا حيزاً كبيراً يكاد يكون ضعفي الحيز الذي عند مرقس ولوقا. وطول نصه أكبر من الذي عند متى بمرة ونصف المرة. هذا ويروي يوحنا أيضاً خطاباً طويلاً جداً للمسيح الى تلاميذه، يملأ من انجيله أربعة فصول [١٤-١٧] اعطى فيه تلاميذه الذين يودعهم آخر توجيهاته، ووصيته الروحية، بينما لا نجد لذلك أي أثر في الاناجيل الاخرى. بل على العكس فان متى ولوقا ومرقس، يروون صلاة المسيح في حديقة الزيتون التي لا يتكلم عنها يوحنا أبداً.

غياب رواية تأسيس الافخارستيا من انجيل يوحنا:

والحدث الاهم الذي يصدم قارىء قصة الآلام في انجيل يوحنا، هو انه لا يتعرض لأي ذكر لتأسيس سر الافخارستيا خلال عشاء المسيح الاخير مع الرسل.

وما من مسيحي لا يعرف صورة «العشاء السري» حيث كان المسيح للمرة الأخيرة، الى المائدة وسط الرسل. وقد أبرز أعظم الرسامين في هذا الاجتماع الاخير وبالقرب من عيسى «عليه السلام» يوحنا الذي جرت العادة على اعتباره كاتب الانجيل المعروف باسمه.

ويوحنا الرسول مهما كان مدهشاً هذا للكثيرين، ليس معتبراً في نظر أكثرية الاختصاصيين كاتب الانجيل الرابع الذي لم يذكر تأسيس الافخارستيا. وهذا التقديس للخبز والخمر اللذين يستحيلان جسد المسيح ودمه هو العمل الطقسي الاساسي للمسيحية، يتكلم عنه الانجيليون الثلاثة الآخرون كما ذكرنا آنفاً وان كان بعبارات مختلفة. اما يوحنا فلا يذكر عنه أية كلمة. والروايات الاربعة للانجيليين تشترك في نقطتين: خبر جحود بطرس، وخبر خيانة أحد الرسل. [يهوذا غير معين بالاسم إلا في انجيلي متى ويوحنا] ويوحنا وحده الذي يروي غسيل عيسى لأقدام تلاميذه في بداية العشاء. فكيف يفسر النقص اذن في انجيل يوحنا؟!

اذا فكرنا موضوعياً، فأول ما يحضر الذهن، مع افتراض صحة رواية الانجيليين

الاساسي للطقس الديني الحديث، هو ما لديه من نقص في تقدير الطقس الفصحي اليهودي؟!

ان هذه المسألة تزعج المفسرين إلى حد ان بعض علماء اللاهوت اجتهدوا في البحث عن شيء من التصورات والوقائع في حياة عيسى «عليه السلام» المروية من يوحنا تسد مسد الافخارستيا. فهذا «كولمان» في كتابه «العهد الجديد» يقول: «ان معجزة «قانا» تحويل الماء الى خمر، هذا الشراب الذي كان يفتقر إليه يوم الزفاف [المعجزة الاولى للمسيح التي ينفرد يوحنا بذكرها من بين الانجيليين: ٢، ١-١٢]. أما معجزة تكاثر الخبز [يوحنا ٦، ١-١٣] فقد كانت لتلبية حاجة خمسة آلاف شخص من خمسة أرغفة. ويوحنا لم يدل خلال روايته لهذه الوقائع بأي شرح خاص. والعلاقة ما كانت إلا من تخيلات الشارح. ولا يمكننا كشف سبب الصلة التي ثبتها، كما اننا نبقى في حيرة عندما يجد نفس الكاتب بأن شفاء الكسيح والاكمه يبشران بالمعمودية» وان «الماء والدم النازفين من ضلع المسيح بعد موته ينصهران في شيء واحد» بالعودة إلى المعمودية والى الافخارستيا.

ويذكر الاب روغيه بمناسبة الافخارستيا محاولة أخرى للتقريب في كتابه «مدخل الى الانجيل» فيقول: «ان بعض علماء اللاهوت التوراتيين مثل أوسكار كولمان يرون في رواية غسيل الاقدام قبل العشاء السري ما يعادل رمزياً تأسيس الافخارستيا».

إننا نسيء اكتشاف اساس كل هذه المحاولات للتقريب المتصورة من الشراح بقصد حمل الآخرين على ان يتقبلوا بارتياح النقص الاكثر اضطراباً في انجيل يوحنا.

ظهور المسيح المبعوث من الموت:

ومثل عظيم للتصرف في الرواية، ذكر بمناسبة انجيل متى مع وصفه للأحداث غير الطبيعية التي رافقت موت عيسى «عليه السلام»، والاحداث التي تبعت انبعاثه من الموت، والتي ستكون مادة للروايات المضادة. بل والمخالفة للحق من جانب جميع الانجيليين.

المبعوث من الموت... باستثناء ثلاثة تنويهات ضعيفة وأكثر من ذلك، فامتنع عن وصفها».

ان التضاد واضح بين بولس الشاهد العيان الوحيد والمشكوك فيه، وبين الاناجيل. وان اوسكار كولمان ليسجل في كتابه «العهد الجديد» التضادات بين لوقا الذي يحدد ظهور المسيح في بلاد يهوذا ومتّى الذي يحدده في الجليل.

اما بخصوص التضاد بين لوقا ويوحنا فلنذكر بأن الحادث المروي من قبل يوحنا [٢١-١، ١٤] عن ظهور المسيح المبعوث من الموت لصيادين على ضفة بحيرة طبريا الذين أخذوا فيما بعد كثيراً من الاسماك حتى لم يعد بامكانهم حملها فيما بعد، ليس سوى اعادة لقضية الصيد العجيب في نفس محل المسيح الحي المروي من قبل لوقا [٥، ١-١١].

ويؤكد لنا الاب روغيه عن هذا الظهور المتكرر في كتابه فيقول: «ان هذا التفكك وعدم الترابط والخليط المشوش جعله يثق بأن كل هذه الوقائع تبرهن بأن الانجيليين لم يتشاوروا [1] في ذلك مسبقاً». وإلا لما كانوا عجزوا عن تنسيق كمنجاتهم. ان هذا التفكير غريب. والكل في الواقع استطاعوا أيضاً أن ينقلوا بأمانة تامة الروايات التي أضفى عليها ثوب القصة ــ بدون معرفة ــ من جماعاتهم. فكيف يمكن ألا يساق احدنا الى هذا الافتراض امام عديد من التضادات والاخطاء في سرد الاحداث؟!

صعود عيسى:

وقد امتدت التضادات حتى نهاية الروايات، لأن كلا من يوحنا ومتّى لم يذكر صعود عيسى في الوقت الذي ذكره فيه مرقس ولوقا.

ففي مرقس [١٦، ١٩] «قد صعد عيسى إلى السماء، وجلس عن يمين الله» وبدون أي تدقيق في التاريخ بالنسبة إلى البعث من الموت. ولكن ينبغي الانتباه إلى أن نهاية انجيل مرقس المتضمنة لهذه العبارة، هي غير اصيلة، لأنها نص

(١) لا يمكن أن يتصور البعض فعل هذا.

«الصناعة» يقصد بها التذكير بأن دور تكرر ظهور عيسى على الارض قد انتهى. ويضيف بأن الثابت في انجيل لوقا أن «الحادث كان في مساء أحد الفصح، لأن الانجيلي لا يجعل أية مسافة زمنية بين مختلف الحوادث التي يرويها، بعد اكتشاف فراغ القبر صباح القيامة...» «... أليس ثمة صناعة أدبية يقصد بها ترك فترة ما من الزمن لتكرر ظهور المبعوث من الموت»؟!

ان الاحساس بالضيق الناتج عن تأويلات من هذا القبيل، هو أيضاً أكثر وضوحاً في كتاب الاب روغيه الذي يكتشف... صعودين!

«في حين يتفق الصعود من وجهة نظر عيسى مع القيامة، فانه لم يكن من وجهة نظر التلاميذ إلا عندما امتنع المسيح تماماً عن الظهور لهم ليصبح الروح مرسلاً اليهم ويبدأ زمن الكنيسة».

وعلى سبيل الثرثرة الاطرائية يوجه الكاتب تنبيهاً عاماً إلى القارىء الذي لا يملك مبادىء المعرفة في الكتابات المقدسة ويعجز عن ادراك دقة برهانه اللاهوتي فيقول: «هنا كما في كثير من الاحوال المماثلة لا تبدو المسألة مستعصية على الحل، إلا اذا تناولنا حرفياً ومادياً تأكيدات الكتابات المقدسة ناسين معانيها الدينية. فليس المقصود من الامر اذابة حقيقية الوقائع في رمزية مائعة، ولكن الحصول على القصد اللاهوتي لأولئك الذين يكشفون لنا الاسرار وهم يبلغوننا الاحداث الحساسة للامارات المناسبة لتمكن روحنا جسدياً»!

أحاديث عيسى الاخيرة
وبارقليط انجيل يوحنا

ان يوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي نقل في نهاية عشاء المسيح السري وقبل توقيفه واقعة الاحاديث الختامية مع الرسل التي ختمت بخطاب طويل جداً. وقد خصص له أربعة فصول من انجيله، لا نجد أية صلة بها في الاناجيل الاخرى. ومع ذلك، فان هذه الفصول تعالج عند يوحنا مسائل أولية في رؤى المستقبل ذات أهمية اساسية معروضة باسلوب فخم واطار عظيم يتميز بهما هذا المشهد الوداعي بين المعلم وتلاميذه.

للنص العام المستعملة في الترجمات وعبارات الشراح الموجودة في المؤلفات المعدة للعامة توجه القارىء الى المعنى الذي تريد الارثوذكسية الطيبة ان تضفيه على هذه المقاطع.

هذا وتبرز عند أقل صعوبة في الفهم والتذقيق توضيحات كالمعطاة من قبل القاموس الصغير للعهد الجديد لـ: أ. تريكو مثلاً التي وضعت لذلك. وبامكاننا في الواقع أن نقرأ بقلم هذا الشارح عن موضوع بارقليط ما يلي:

«لم يستعمل هذا الاسم أو هذا اللقب المنقول من اليونانية الى الفرنسية في العهد الجديد إلا من القديس يوحنا: أربع مرات، عندما نقل خطاب عيسى «عليه السلام» بعد «العشاء السري»(١) [١٤، ١٦، و٢٦، ١٥، ٢٦، ١٦، ٧] ومرة في رسالته الاولى [٢، ١] وتنطبق هذه الكلمة في انجيل يوحنا على الروح القدس. أما في الرسالة الى المسيح. فقد كانت كلمة «بارقليط» رائجة بين اليهود الهللينيين من القرن الاول بمعنى الشفيع والنصير. [...] وقد أعلن عيسى «عليه السلام» بأن الاب والابن سيرسلان الروح، وستكون مهمته الخاصة أن يقوم مقام الابن الذي كان له دور المنقذ طيلة حياته الفانية في صالح تلاميذه. وسيأتي الروح ويتصرف كخليفة للمسيح، وبصفته بارقليطاً أو الشفيع القادر على كل شيء».

يجعل هذا الشرح من الروح القدس اذن المرشد النهائي للناس بعد اختفاء عيسى «عليه السلام». فهل يتفق مع نص يوحنا؟! ينبغي أن يطرح هذا السؤال، لأنه أولاً يبدو عجيباً أن نتمكن من نسبة الفقرة الاخيرة الواردة آنفاً إلى الروح القدس. «انه لن ينطق من تلقاء نفسه، ولكنه سوف يقول ما سيسمعه، وسيعرفكم على كل ما سيكون» فكأنما يبدو غير قابل للتصور أن تنسب إلى الروح القدس قدرة التحدث بكل ما يسمع.. وبقدر ما أعرف، هذا السؤال الذي يفرض المنطق توجيهه، لم يكن على العموم هدف شروح.

---

(١) في الحقيقة انه في مجرى العشاء السري وجه المسيح من أجل يوحنا الخطاب الطويل الذي فيه موضوع البارقليط وهو خطاب غير منقول من قبل الانجيليين الثلاثة.

تختص إلا بكائن له آلة السمع وآلة الكلام. ويستحيل تطبيقهما بالتالي على الروح القدس.

وهكذا، كما هو مبين لنا من المخطوطات اليونانية، فإن نص هذا المقطع من انجيل يوحنا غير مفهوم مطلقاً اذا قبلناه بكليته مع كلمتي الروح القدس من فقرة [١٤، ٢٦] «البارقليط الروح القدس الذي سيرسله الاب باسمي..» الخ الجملة الفريدة في انجيل يوحنا التي تثبت الوحدة بين البارقليط والروح القدس.

ولكن اذا حذفنا كلمتي الروح القدس.. من هذه الجملة فيصبح نص يوحنا بتمامه معبراً عن معنى شديد الوضوح. وهذا المعنى مجسد في موضوع ثان بنص آخر من الانجيل وهو نص الرسالة الاولى التي استخدم فيها يوحنا نفس كلمة بارقليط أي ببساطة عيسى «عليه السلام» كشفيع عند الله[١] وعندما يقول عيسى كما في يوحنا [١٦، ١٤] «سأدعو الله، وسيرسل لكم بارقليطاً آخر» فانه يريد أن يقول بانه سيرسل الى الناس «شفيعاً آخر» كما كان هو بالذات عند الله لمصلحتهم أثناء حياته الدنيوية.

وبمنطق كامل، نجد انفسنا مسوقين الى أن نرى في بارقليط يوحنا كائناً بشرياً مثل عيسى «عليه السلام» موهوباً بطاقة السمع والكلام، هاتين الطاقتين اللتين يحويهما نص يوحنا اليوناني بوضوح، فيخبر المسيح اذن بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الارض ليكون له الدور المحدد من يوحنا الذي هو **بكلمة واحدة دور رسول يسمع كلام الله، ويكرر للناس رسالته. هذه هي** الترجمة المنطقية لنص يوحنا اذا شئنا أن نعطي للكلمة معناها الصحيح[٢].

ووجود كلمتي الروح القدس في النص الذي بين ايدينا اليوم كان حسب

---

(١) كثير من الترجمات والشروح وبخاصة القديمة للاناجيل تترجم الكلمة بالمعزي وهو خطأ كامل.

(٢) كذلك كانت أحوال الرسل ينشرون رسالتهم ويصدقون من قبلهم. فقد صدق عيسى برسالة موسى، وصدق محمد برسالة عيسى والقرآن يقول بالنسبة للأول: ﴿.. قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم..﴾ ويقول بالنسبة إلى التالي: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد..﴾. «المترجم».

أقامت «ثورة في مناهج التفسير» وأفضت الى «عدم التمسك بحرفية النص» في الاعمال المنقولة في موضوع المسيح من الاناجيل «المكتوبة حسب الظروف» أو «المعارك»: ان المعارف الحديثة وقد كشفت تاريخ اليهودية ــ المسيحية، والتنافسات بين الطوائف فسرت وجود الوقائع التي تقلق قراء هذا العصر. فلم تعد فكرة ــ الشهود العيان من الانجيليين ــ قابلة للتبني رغم انها ما تزال فكرة العديد من المسيحيين. وثمة دراسات من المعهد التوراتي في القدس للأ بوين بوامار وبنوا، تفيد بأن الاناجيل كتبت وروجعت وصححت مرات عدة. ثم انهم اخطروا قارىء الانجيل بأنه «يجب أن يتنازل في أكثر من حال عن ارادته في سماع الصوت المباشر للمسيح».

انه لا نزاع في الصفة التاريخية للاناجيل. ولكن هذه الوثائق تعرفنا قبل كل شيء، عبر الروايات المتعلقة بعيسى، بعقلية الكتّاب، حملة كلمة عرف الطوائف المسيحية البدائية الذين يرجعون اليهم، وبخاصة في النزاعات بين اليهود ــ المسيحيين وبولس. ان اعمال الكادرينال دانييلو تعتبر مرجعاً في هذه النقاط.

فكيف ندهش لفكرة تحريف بعض الانجيليين بعض أحداث حياة المسيح. وقد كان غرضهم الدفاع عن وجهة نظر شخصية؟! وكيف ندهش لحذف بعض الاحداث؟ وكيف ندهش للسمة القصصية في وصف البعض الاخر؟!

اننا مسوقون لمقارنة الاناجيل بالقصائد القديمة التي تمتدح فيها بطولات الفرسان في أدب القرون الوسطى، كانشودة رولان التي هي أشهرها، والتي تقص علينا بأسلوب قصصي، حادثاً حقيقياً. فهل نعلم أنها تقص علينا حادثاً أصيلاً، وهو عبارة عن كمين تأذت منه مؤخرة شارلمان، التي كانت بقيادة رولان في مضيق رونسوفو؟ هذا الحادث هو من الاهمية الثانوية. وقع في الخامس عشر من آب ٧٧٨ حسب التوقيت التاريخي «ايجينار». ولقد ضخم ورفع الى مستوى بطولة فذة للسلاح والمعركة في حرب مقدسة. لقد سردت هذه القصة حسب الهوى. ولكنها مع ذلك لم تنقص من واقعية احدى معارك شارلمان التي قام بها، ليصون حدوده ضد محاولات غزوها من شعوب الجوار. وهنا تكمن الاصالة. والاسلوب الشعري للرواية لا يمحوها أبداً.

القرآنُ وَالأحاديث وَالعِلم الحَديث

هذا الخطأ عن القرآن، هو استاذ في كلية اللاهوت اليسوعية في ليون. فاصدار مخالفات للحقيقة من هذا النوع يسهم في اعطاء صورة باطلة عن القرآن وعن الاسلام.

ومع ذلك فهناك مبررات للامل، لأن الاديان اليوم لم تعد، كما كانت من قبل، منطوية على نفسها. بل ان كثيراً منها يحاول أن يحقق ادراكاً مشتركاً وتفكيراً موحداً. وكيف لا نتأثر عندما نجد في أعلى مستويات الكهنوتية المسيحية الكاثوليكية من يسعى الى تثبيت اللقاء مع المسلمين ويحاول محاربة سوء الفهم. ويجتهد في تعديل الرؤية غير الصحيحة المنتشرة عن الإسلام؟

لقد أوضحت في مقدمة هذا الكتاب التبدّل العظيم الذي طرأ في السنوات الاخيرة. وذكرت وثيقة صادرة عن أمانة سر الفاتيكان موجهة الى غير المسلمين مصدرة بالعنوان التالي: «اتجاهات لحوار بين المسيحيين والمسلمين» وانها وثيقة بليغة المعنى عن المواقف الحديثة المتخذة تجاه الاسلام. انها تلح، ولنقرأ، في الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠ لهذه الدراسة «على مراجعة المواقف تجاه الاسلام وعلى نقد أحكامنا» «يجب أن نهتم أولاً وتدريجياً بتغيير فكر اخوتنا المسيحيين. وهذا يهمنا قبل كل شيء» وينبغي التخلي عن «الصورة الباهتة الموروثة عن الماضي، أو المشوهة بالمزاعم الباطلة والافتراءات» «والاعتراف بالظلامات التي اجترحها الغرب بحق المسلمين»[1] ان وثيقة الفاتيكان التي هي عبارة عن مئة وخمسين صفحة تفيض بتفنيد الرؤى التقليدية التي كانت للمسيحيين عن الاسلام وتعرض ما هو حقيقة.

وتحت عنوان «علينا أن نتحرر من أضخم مزاعمنا الباطلة» وجه كُتّاب هذه

---

(١) كل صورة من صور التعدي على الاسلام، حتى ولو كانت من خصوم معروفين للمسيحية تقبل في عصر ما الاستحسان الشديد من أعلى المستويات في الكنيسة الكاثوليكية. حتى ان البابا بينوا الرابع عشر المشهور بأنه الحبر الاعظم في القرن الثامن عشر، لم يتردد في أن يرسل بتبريكه الى فولتير وقد أراد شكره على اهدائه له مأساته «محمد» أو التعصب ١٧٤١. **وهي مسرحية سيئة يستطيع أن يكتب مثلها أي كاتب تتوفر له بذاءة كافية وقد لقيت على الرغم من ذلك ترحيباً ودخلت في التراث الكلاسيكي الكوميدي الفرنسي.**

يمكن أن تفيد معنى لفظة «الاله» (ديو) عند المسيحيين. فالمسلمون والمسيحيون يعبدون الاهاً واحداً[1].

ثم ان مما عالجته الوثيقة الفاتيكانية أيضاً، نقد الاحكام الاخرى الخاطئة التي حملت على الاسلام فعالجت «قدرية الاسلام» وهو حكم مسبق ومنتشر، واستشهدت بآيات من القرآن المؤيدة وقابلتها كلها بمعنى المسؤولية الانسانية التي تتحمل تبعة الافعال. وكشفت خطأ التصور بأن الاسلام دين المظاهر القانونية، وقابلته على العكس ببيان صفاء العقيدة وسلامتها. وأوردت آيتين من القرآن مجهولتين جداً من الغربيين وهما: ﴿لا اكراه في الدين﴾ آية ٢٥٦ سورة ٢ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ سورة ٢٢ آية ٨٧[2].

وتقابل الوثيقة أيضاً الفكرة الذائعة عن الاسلام بأنه دين الخوف، بتلك التي تقول بأنه دين الحب، حب الغير، المتأصل في العقيدة في الله. كما تفند الفكرة الرائجة باطلاً، والتي تهدف الى وصم الاسلام بأنه خال من النظام الاخلاقي، تلك التي يساهم فيها عديد من اليهود والمسيحيين التي مآلها تعصب الاسلام. وذلك بما شرحته بالعبارات التالية: «والواقع أن الاسلام لم يكن يوماً أكثر تعصباً في مجرى تاريخه من المدن المقدسة المسيحية عندما كان للايمان المسيحي نوع من القدر السياسي». وهنا يورد الكتاب عبارات من القرآن توضح أن ما كان يترجمه الغربيون خطأ «بالحرب المقدسة»[3] هو ما يعبر عنه في العربية «بالجهاد في

(١) لا نظن هذا التعبير دقيقا وإلا فلماذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ ويقول: ﴿فتعالى عما يشركون﴾؟! «المترجم».

(٢) يلاحظ هنا أن الكاتب ترجم هذه الاية بأن الله لم يجعل في الدين من حرج. وفي هذا مالا يتفق مع المعنى الاصلي للآية. لأن الخطاب فيها موجه الى المؤمنين وهم الذين لم يجعل عليهم في الدين من حرج. اما من سبقهم فقد كان ذلك وبخاصة اليهود (المترجم).

(٣) كثير من ذوي الشهرة العظيمة من مترجمي القرآن لم يفلتوا من هذه العادة المقدسة من أن يضعوا في ترجماتهم ما ليس موجوداً في الواقع في النص العربي. وفي الواقع يمكن دون افساد النص بالذات زيادة العناوين غير الموجودة في الاصل. وهذه الزيادة تحور المعنى العام. وهكذا فعل بلاشير في ترجمته المشهورة، فقد ادرج عنواناً غير موجود في القرآن، وهو (فروض الحرب المقدسة) في صدر مقطع هو لا شك نداء لحمل السلاح، ولكن ليست له الصفة التي أعطيت له. فكيف بعد هذا يستطيع القارىء الذي لا يملك الا تصال بالقرآن إلا بواسطة الترجمة ألا يقتنع بأن المسلمين مفروض عليهم شن الحرب المقدسة!!

ان موضوع هذا التلاقي هنا هو اختبار الكتابات المقدسة في ضوء معطيات العلوم والمعارف المتصلة باصالة النصوص بالنسبة للقرآن كما كان للوحي اليهودي ــ المسيحي.

هذا ولم تكن العلاقات بين الاديان والعلم واحدة في كل مكان وزمان، لأن الواقع انه لم يكن من أية كتابة لأي دين وحداني تقبيح للعلم. ولكن ينبغي الاعتراف بأن أرباب العلوم في الممارسة تنازعوا مع السلطات الدينية في بعض المذاهب. فقد تصدت بعض السلطات المسؤولة في الوسط المسيحي وخلال قرون عديدة، عفوياً ودون الاستناد الى نصوص اصيلة من الكتابات المقدسة الى انتشار العلوم، واتخذت ضد أولئك الذين كانوا يحاولون دفعها الى التقدم، التدابير التي نعرفها والتي كثيراً ما انتهت ببعض رجال العلم الى المنفى، اذا شاؤوا تجنب التعذيب، إلا اذا ندموا وصححوا موقفهم وطلبوا العفو والغفران. ونذكر بهذه المناسبة دائماً حالة خصومة غاليلي، الذي لوحق لأنه أعلن اكتشافات كوبرنيك في موضوع دوران الارض. فقد حكم عليه بموجب تفسير ضال للتوراة، اذ لا يمكن استعمال أي كتابة مقدسة ضده.

لقد كان موقف الاسلام على العموم تجاه العلم مختلفاً. وليس ثمة أوضح من حديث الرسول القائل: «أطلب العلم ولو في الصين» وغيره الذي يفيد بأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وسنرى في هذا الجزء من الكتاب أن القرآن الذي يدعو إلى تطوير العلم، يحوي العديد من النظرات عن احداث طبيعية مع تفصيلات موضحة لها تبدو شديدة الاتفاق مع معطيات العلم الحديث. وليس في الوحي اليهودي ــ المسيحي مثيل لهذا النوع.

بيد أنه من الضلال الاعتقاد بأن بعض المؤمنين بالاسلام لم يكن لهم في زمن ما من تاريخه موقف مختلف مع العلم. ولقد أسيء في الواقع في بعض العصور فهم فرض تعلم وتعليم الآخرين. ولقد كان في العالم الاسلامي كما كان في سواه في بعض الاحوال، سعي لتوقيف التقدم العلمي. ولكن ينبغي أن نذكر أنه ما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي فترة عظمة الاسلام، حيث كانت التغييرات العلمية مرفوضة في بلادنا المسيحية، كانت كميات معتبرة من الابحاث

ألم يكن يجب على معجزات المعرفة العلمية المعاصرة أنْ تصل في اطار الحياة، بمن يفكر الى نقيض هذه النتيجة؟ ألم تكن البنية التي قادت الى ولادة الحياة وكيانها تبدو لدارسها، معقدة أكثر فأكثر، بحيث انه كلما احسنا التعرف اليها في تفاصيلها، كلما بعثنا على الاعجاب؟ ألا تؤدي المعرفة بها الى اعتبار عامل الصدفة في حادث الحياة أقل صحة مرة بعد أخرى؟. وكلما تقدمنا في مضمار المعرفة، وبخاصة فيما يخص الجوهر، كلما كانت البراهين في صالح وجود الخالق. ولكن بدل أن يتواضع الانسان أمام بعض الوقائع، فانه ينتفخ كبرياء وغروراً. إنه يخيل اليه ان من حقه الاستهزاء بكل فكرة عن الله، بل والسخرية بكل ما يصادفه، اذا كان يحجزه عن تحقيق متعته وشهوته. هذه هي الآن ظاهرة المجتمع المادي الغربي في كامل تفتحه.

فما هي القوى الروحية المتصدية لهذا الاسفاف الفكري من كثير من العلماء المعاصرين؟

تجاه هذه الموجة المادية، وانغمار الغرب بالالحاد، تعلن اليهودية، والمسيحية مثلها، عجزهما عن حجزها. وكلاهما تجاهها في كامل الاضطراب. ألسنا نجد من عشر سنوات الى أخرى تزايد عجز مقاومتهما الظاهر لهذا التيار الذي يهدد باكتساح كل شيء؟ ان المادية الملحدة لا ترى في المسيحية التقليدية إلا نظاماً صنعه الناس منذ قريب من ألفي سنة لتثبيت نفوذ أقلية على أمثالها. ولا نعرف في كتابات اليهودية ــ المسيحية المقدسة وجود لغة تنتمي ولو من بعيد الى لغتها، لأن هذه الكتابات تحتوي كثيراً من التضادات، وما لا يتفق مع الحق، ولا مع معطيات العلوم الحديثة التي ترفض أن تأخذ بعين الاعتبار نصوصاً يريد غالبية اللاهوتيين قبولها مسلمة جملة واحدة.

هل نكلمها عن الاسلام؟ انها ستبتسم ابتسامة اكتفاء لا يَعْدِله سوى عدم كفاية معرفتها في الموضوع. ومثلها أغلبية المفكرين الغربيين أيا كانت عقائدهم الدينية، وقد تكونت لديهم عنه مجموعة عظيمة من الافكار الخاطئة.

ولهذا فانه ينبغي منحها من وجهة النظر هذه بعض الاعذار. فأولاً الشذوذ الحاصل في المواقف الجديدة المأخوذة عن السلطات العليا في الكاثوليكية. فقد

ومتفقة تماماً مع المعارف العلمية الحديثة. ولم يكن لدي في البدء أي ايمان بالاسلام. وقد بدأت هذا الاختبار للنصوص بموضوعية كاملة وبفكر متحرر من كل حكم مسبق. ولئن كان ثمة من تأثير يمكن أن يمارس علي، فهو تأثير التعليم الذي تلقيته في شبابي عندما لم يكن الناس من حولي يتكلمون عن المسلمين، بل عن المحمديين لصرف فكر السامع إلى أن الدين المتحدث عنه مؤسس من انسان، ولا يمكن أن يكون له بالتالي أي قدر عند الله. وككثيرين في الغرب، كان يمكنني الاحتفاظ بهذه الافكار الخاطئة عن الاسلام والمنتشرة الى حد بعيد في أيامنا، حتى أني كنت ادهش دوماً عندما أصادف فيما عدا الاختصاصيين محاورين مستنيرين في هذه النقاط. واعترف بأني كنت شديد الجهالة قبل أن أكون صورة عن الاسلام مختلفة عن تلك المعطاة في الغرب.

ولئن كنت قد تأكّدْت من خطأ الاحكام العامة المحمولة في الغرب عن الاسلام، فاني مدين بذلك الى ظروف استثنائية، فقد اعطيت عناصر التقدير في العربية السعودية بالذات التي كشفت لي ما عليه الناس في بلادنا من ضلال في الرأي تجاه الاسلام.

وسأبقى مديناً بالشكر العظيم للمأسوف عليه الملك فيصل الذي أحيي ذكراه باحترام، والذي كان لي شرف الاستماع إليه وهو يتكلم عن الاسلام، وأن أثير بحضوره بعض موضوعات في الترجمة القرآنية المتصلة بالعلم الحديث. وسيبقى كل ذلك منقوشاً في ذاكرتي الى الابد، لأن مجرد حصولي منه وممن يحيطون به على معلومات قيمة كان ذا اعتبار خاص.

أما وقد قدرت ما يفصل حقيقة الاسلام عن الصورة التي لدينا عنه في بلادنا الغربية، فقد أحسست بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها، لأكون قادراً على التقدم في دراسة دين مجهول الى حد بعيد. وقد كان غرضي الاول منصباً على قراءة القرآن وعلى آختبار نصه عبارة، عبارة بمساعدة تفسيرات مختلفة لا يستغنى عنها في دراسة نقدية. وقد أعرت انتباهاً خاصاً جداً. لما يعطيه من وصف لعدد من الظواهر الطبيعية. لقد أدهشتني دقة بعض تفاصيل الكتاب المندرجة في النص الاصلي بسبب توافقها مع أحدث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي

القرآن لم تثبت صحتها الا في هذا العصر الحديث.

من هنا ندرك ان مفسري القرآن خلال القرون (بما فيهم مفسرو الفترة العظيمة للمدنية الاسلامية) قد ارتكبوا دونما ريب اخطاء في تفسير بعض الآيات التي لم يكونوا يدركون معانيها الدقيقة. وقد ظلوا كذلك حتى الفترة الاخيرة القريبة من هذا العصر، حيث تمكنوا من تفسيرها التفسير الصحيح. وهذا يفيد، بانه لا يكفي لكي نفهم هذه الآيات القرآنية التبحر في المعارف اللغوية، بل لا بد من تملك معارف علمية متنوعة جداً. ودراسة مثل هذه، هي جامعة للدساتير والمعارف وستتأكد مع اطراد طرح الاسئلة المتولدة من تنوع المعارف العلمية التي هي ضرورية لالتقاط معنى بعض آيات القرآن.

وليس القرآن كتاباً هدفه عرض بعض الانظمة التي تحكم الكون. بل هو في الاساس كتاب ذو هدف ديني. وهذا واضح على الخصوص بمناسبة اوصاف القدرة الالهية المطلقة التي تستنهض الناس للتفكير في اعمال الخلق، مقترنة، اما باشارات الى وقائع خاضعة للملاحظة الانسانية، أو إلى قوانين حددها الله، تحكم نظام الكون فيما يخص علوم الطبيعة، وفيما يخص الانسان. وبعض هذه الامور سهل الفهم. أما البعض الآخر فلا يمكننا التقاط معناه الا اذا كانت لدينا معارف علمية ضرورية لذلك. وقصارى القول هنا ان انسان القرون الماضية لم يكن قادراً على أن يكشف من ذلك إلا ظاهر المعنى الذي قد يحمله في بعض الاحوال على الوصول الى نتائج غير صحيحة نظراً لعدم اكتمال معرفته اذ ذاك.

وربما يبدو تصنيف الآيات القرآنية لدراسة صورها العلمية شديد الاقتضاب بالنسبة إلى بعض الكتاب المسلمين الذين لفتوا النظر قبلي الى هذه الوقائع. وبالجملة فانه يخيل الي أني استحصلت على عدد أقل من الآيات مما فعلوا. لقد حددت بعض الآيات التي لم يعيروها حتى الآن الأهمية التي تستحقها كما يبدو لي من وجهة النظر العلمية. فآمل ألا يقسوا علي إذا كنت قد ارتكبت أخطاء لعدم أخذي بالاعتبار في هذه الدراسة، آيات كانوا هم قد انتقوها، وقد عثرت أحياناً أيضاً في بعض الكتب على تفسيرات علمية لا يبدو لي أنها صحيحة، وقمت بانتقائها وتفسيرها تفسيراً شخصياً باستقلال فكري وباخلاص تامين.

ولعل هذه النظرة للسمة المتبدلة للنظريات هي التي حدت بي إلى استبعاد آية قرآنية فكر عالم بالطبيعة مسلم، بأنها تعلن مفهوم اللامادة. وهي نظرية يدور حولها الجدل حالياً. وعلى العكس فانه يمكن شرعاً لفت انتباهه إلى آية من القرآن تذكر أصل الحياة المائي وهي ظاهرة لا يمكننا اثباتها مطلقاً، وان كانت تلتقي عليها آراء كثيرة. أما بخصوص عوامل الملاحظة كتطور الجنين الانساني فإنه يمكننا أن نواجه تماماً مختلف المراحل الموصوفة في القرآن بمعطيات علم الجنين الحديث، واكتشاف اتفاق العلم المطلق مع الآيات القرآنية المتعلقة به.

لقد أكملت المواجهة بين العلم والقرآن في مقارنتين: المواجهة مع المعارف الحديثة للمعطيات التوراتية المتعلقة بنفس الموضوعات من جهة، والمقارنة من نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن كتاب الوحي المنزل من الله على النبي، ومعطيات الحديث، كتب الاخبار والاقرارات الصادرة عن محمد، التي هي ليست من الوحي المكتوب من جهة أخرى[1].

وسنرى في ختام هذا الجزء الثالث من الكتاب تفصيلات نتائج مقارنة الروايات التوراتية، والروايات القرآنية للحادث الواحد والتدقيق من خلال النقد العلمي لكل رواية.

وقد اختبرنا على سبيل المثال موضوع الخلق والطوفان. وأوضحنا في الاول كما في الثاني عدم مطابقة الرواية التوراتية للعلم، واتفاق الروايات القرآنية التام بهذا الخصوص مع العلم الحديث. على أننا سنذكر الفروق التي تجعل على سبيل الدقة رواية ما مقبولة في العصر الحديث، في حين تكون الرواية الاخرى غير مقبولة.

هذه الملاحظة هي من الاهمية الاولى لأن اليهود والمسيحيين والملاحدة في البلدان الغربية يلتقون على رأي واحد. [وبدون أي دليل] ليعلنوا أن محمداً ﷺ كتب أو استكتب القرآن مقلداً التوراة. وهذا الموقف هو بنفس خفة ذلك الذي

---

(١) ان الذي عليه اجماع الصحابة وأهل العلم أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو ما أثبته القرآن في سورة النجم في قوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وأن الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ سواء كان قولا أو تقريراً أو فعلا متعلقاً بأمر من أمور الدين هو وحي من الله تبارك وتعالى قدمه الرسول ﷺ بعبارته (المترجم).

ان هذه الملاحظة الاخيرة تجعل افتراض من يرون محمداً ﷺ كاتباً للقرآن مرفوضاً، اذ كيف يتيسر لرجل حرم العلم في نشأته، أن يصبح ــ على الاقل من وجهة نظر القيمة الأدبية ــ الكاتب الأول في الأدب العربي كله، يخبر عن حقائق في النظام العلمي تتجاوز وسع أي كائن انساني في هذا الزمن، ودون أن يكون منه أي خطأ مع ذلك.

ان الاعتبارات التي سنتوسع فيها في هذه الدراسة، ستوصلنا من وجهة النظر العلمية فقط، الى الحكم بأن من المستحيل تصور رجل عاش في القرن السابع الميلادي، واستطاع أن يورد في القرآن أفكاراً في موضوعات متنوعة جداً، ليست أفكار عصره تلتقي مع ما سيكتشفه الناس منها بعد قرون متأخرة عنه. أما بالنسبة إلي فليس للقرآن أي تفسير بشري.

تاريخ تدوينه

إن لأصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي، لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد[1]. فقد سبق وراجعنا في الجزأين الاولين من هذا الكتاب، التعديلات التي طرأت على العهد القديم والاناجيل قبل أن تصلنا على ما هي عليه الآن. أما القرآن فليس الامر بالنسبة إليه كذلك لأنه دوّن في عهد الرسول بالذات، وسنرى كيف تم هذا التدوين.

ان الفروق التي تميز القسم الاخير من الوحي في هذا الموضوع عن القسمين الاولين لا تعود في الاساس إلى مسائل متعلقة بالتوقيت كما يشاء البعض أن يجعلها في الطليعة حسب القاعدة دون أن يعير أهمية للظروف التي حكمت في تدوين نصوص الوحي اليهودي ــ المسيحي، ونصوص الوحي القرآني. والظروف التي تحكمت أيضاً في نزول القرآن على الرسول. ويشير البعض بأن نصاً يعود إلى القرن السابع الميلادي كان له حظ الوصول إلينا دون أن تمسه يد التغيير مثلما أصابت غيره من النصوص، التي تعود الى خمسة عشر قرناً في القديم. والملاحظة صحيحة ولكنها لا تحقق توضيحاً كافياً. على أنها في الاكثر كانت لالتماس العذر لتعديلات نصوص اليهودية ــ المسيحية على مر الاجيال أكثر من أن تكون للتأكيد بأن النص القرآني ــ الذي هو أكثر حداثة ــ على خطر أقل من الاولين من تحريف الناس.

ومن أسباب وجود الخطأ والتضاد في العهد القديم، تعدد الكتّاب للرواية الواحدة، والمراجعات المنجزة لبعض الاسفار على فترات من العهد السابق على

---

(١) نذكر بمناسبة هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ الحج آية رقم ٦٧ «المترجم».

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾. وقد لاحظ الاستاذ حميد الله في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن ان أحد مواضيع هذا الوحي الاول كان «مدح القلم لكونه وسيلة لتحصيل المعرفة الانسانية» مما يفسر «اهتمام النبي بالاحتفاظ بالقرآن مكتوباً».

وهناك نصوص ظاهرة تؤكد بأنه قبل أن يهاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بكثير كان ما يوحى به من القرآن يثبت كتابة. وهذا ما سيؤكده القرآن. وكانت عادة محمد ﷺ وأصحابه حفظ القرآن وترتيله عن ظهر قلب. فلم يكن يتصور أن يشير القرآن إلى وقائع لا تمت إلى الحقيقة بصلة في الوقت الذي كانت فيه مراقبة من صحابة الرسول ﷺ المتصلين بالكتبة.

ان هناك أربعاً من السور المكية تشير إلى كتابة القرآن قبل أن يكون الرسول ﷺ قد ترك مكة سنة ٦٢٢. سورة ٨٠ آية ١١-١٦.

﴿كلا انها تذكرة. فمن شاء ذكره. في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة. بأيدي سفرة. كرام برزة﴾.

وقد كتب يوسف علي في شروح ترجمته للقرآن سنة ١٩٣٤ بأنه أثناء نزول الوحي بهذه السورة كان بين يدي مسلمي مكة اثنتان وأربعون سورة غيرها أو خمس وأربعون [من أصل مئة وأربع عشرة] سورة ٨٥ آية ٢١-٢٢ ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾.

سورة ٥٦ آية ٧٧-٨٠ ﴿انه لقرآن كريم في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين﴾.

سورة ٢٥ آية ٥ ﴿وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾.

تشير هذه الآية الى اتهامات اعداء الرسول المحمولة عليه، الذين كانوا يصفونه بالخداع، ويزعمون أن أحداً كان يملي عليه أساطير الاقدمين التي كان يكتبها أو يكتتبها [ان معنى الكلمة موضع جدال ولكن علينا أن نذكر بأن محمداً ﷺ كان أمياً] ومهما يكن فإن هذه الآية تشير إلى المسجل كتابة، وهو ما كان يعترف به حتى خصوم محمد صلى الله عليه وسلم.

كتبة الوحي النبوي زيد بن ثابت، بأن يجمع القرآن ففعل. وقد رجع زيد بتوجيه من عمر [الخليفة الثاني] لانجاح مهمته، إلى جميع الوثائق التي كان بامكانه الرجوع إليها في المدينة. فقابل ما عند الحفاظ على ما كان مكتوباً منه على مختلف المواد، التي كانت ملكاً لبعض الصحابة، لتفادي أي خطأ ممكن في النقل، ولضمان جمع أمين للقرآن.

وتفيد المصادر بأن الخليفة عمر سنة ٦٣٤ جعل منها فيما بعد مصحفاً احتفظ به عنده، ثم سلمه الى ابنته حفصة أم المؤمنين التي توفي عنها الرسول (١).

ثم ان الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي امتدت خلافته ما بين ٦٤٤-٦٥٥ كلف من بعده مجموعة من المدققين ليقوموا بمراجعة دقيقة للقرآن عرفت فيما بعد باسمه. فدققت المجموعة في أصالة الوثيقة التي جمعت في عهد أبي بكر والتي بقيت محفوظة عند حفصة. ورجعت إلى الذين كانوا يعرفون النص عن ظهر قلب. وتمت عملية التدقيق بحزم. وقد كان ضرورياً توافق الشهادات لاعتماد أيّة آية قد تكون موضوعاً للجدل. ومن المعلوم أن بعض الآيات القرآنية قد تصحح (٢) البعض الآخر فيما يختص بالتعليمات، وهذا طبيعي اذا اعتبرنا ان رسالة الرسول ﷺ امتدت على عشرين عاماً تقريباً. وهكذا تم جمع القرآن حسب ترتيب الرسول ﷺ وكما عرضه طيلة شهر رمضان كما عرفنا (٣).

ويمكن أن نتساءل عن الاسباب التي حدت بالخلفاء الثلاثة، وعثمان بالذات باجراء المراجعات على نص الكتاب. وللاجابة نقول: لقد كان انتشار الاسلام في السنوات العشر الاول عقب وفاة الرسول بسرعة عجيبة، وبين شعوب تتكلم أكثر من لغة غير اللغة العربية، فكان لا بد من الاحتياط الضروري في

---

(١) المعلوم أن السيدة حفصة احتفظت بالقرآن بعد وفاة والدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أن طلبه منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. المترجم.

(٢) لعله يشير إلى ما قد يكون بين الايات من ناسخ ومنسوخ. المترجم.

(٣) الثابت أن ما عمله أبو بكر رضي الله عنه هو جمع القرآن الكريم من صدور القراء ومما كتب عليه من الحجارة وورق البردى والعسب والرقاع وغيرها، بين دفتين، خشية أن يذهب منه شيء بذهاب حملته، ومرتّباً حسبما وقفهم عليه النبي ﷺ. أما عمل عثمان رضي الله عنه فهو لحمل الناس على القراءة بوجه واحد نتيجة لا تفاق تم بينه وبين المهاجرين والانصار خوفاً من الفتنة. المترجم.

٣ ـ خَلقُ السَّمٰوات وَالأرض

السبت بالتماثل مع أيام الاسبوع.

وقد رأينا أن هذا الاسلوب في السرد الذي اتبعه كهنة القرن السادس قبل الميلاد يستجيب إلى رغبات التحريض لاعتماد السبت كيوم راحة: وكل يهودي مفروض عليه الراحة يوم السبت [1] اتباعاً لله الذي استراح بعد عمل دام ستة أيام من الاسبوع [2].

وهكذا فان مفهوم كلمة يوم في التوراة محدد بالمسافة الزمنية المعتبرة بين مطلعين للشمس أو مغربين لها متتابعين بالنسبة إلى ساكن الارض. واليوم المحدد على هذه الصورة هو حصيلة دوران الارض حول نفسها. وانه لواضح بأنه لا يمكننا منطقياً التحدث في اطار هذا التحديد لمعنى «الايام» في نفس الوقت الذي لم يظهر فيه في الواقع ما يحقق تجمعه على هذه الصورة في دورات الخلق الاولى حسب رواية التوراة ــ بمعنى أن وجود الارض ودورانها حول الشمس ــ هذه الاستحالة ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب.

ولئن رجعنا إلى نصوص غالب ترجمات القرآن فانا نقرأ فيها ــ بالمقابلة مع ما تعلّمنا اياه التوراة ــ ان استمرار الخلق بالنسبة إلى الوحي الاسلامي قد امتد أيضاً على مسافة ستة أيام. اننا لا نعرف كيف نعتب على المترجمين عدم اعطائهم الكلمة العربية معناها الاكثر شيوعاً كذلك تظهرها الترجمات عادة. ولكننا نستطيع أن نقرأها في القرآن في الآية ٥٤ من السورة ٧ ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام﴾.

وقليلة تلك هي ترجمات القرآن وشروحه التي تفيد بأن كلمة «أيام» ينبغي أن تفهم حقيقة بمعنى الدورات الزمنية. وقد سبق واثبتنا أن النصوص القرآنية في الخلق تقسم هذه الدورات الى «أيام» وذلك برغبة تناول ما كان الناس كل الناس يعتقدونه في مطلع الدعوة الاسلامية من اليهود والمسيحيين، دونما مصادمة لاعتقاد واسع الانتشار.

---

(١) السبت معناه الراحة في العبرية.

(٢) ليس لهذه الفكرة أصل في عقيدتنا الاسلامية (المترجم).

الخلق اختيار تقسيم زمنه إلى أيام بمعنى «نوبات» لا بالمعنى الذي اعتدنا استعماله.

وقد استفاد بعض مفسري هذا العصر من هذا التفسير الجديد. فهذا السيد يوسف علي ١٩٣٤ الح في شرحه لكل آية تعالج دورات من الخلق على ضرورة فهم كلمة اليوم بالمعنى الحقيقي لها وهو «الدورات الزمنية الطويلة» أو «الآجال».

وعلى هذا فاننا يمكننا القول بأن القرآن يعبر عن مراحل خلق العالم بأنها ستة، وبمعنى دورات طويلة من الزمن. والعلم الحديث لم يسمح للناس، بالتأكيد، بتثبيت المراحل الست المتنوعة للتكوين الممتد التي انتهت بتكوين العالم. ولكنه أوضح شكلياً بأنه يراد منها دورات زمنية طويلة وان فهمنا للفظة «الايام» الواردة في القرآن بالمعنى الذي ندركه عادة، هو مهزلة.

وقد ذكر القرآن الخلق في أطول مقاطعه التي عالجت موضوعه وهو يسرد وقائع وجود الارض مقابل أخرى لوجود السموات. يقول الله مخاطباً الرسول ﷺ سورة ٤١ آية ٩-١٢:

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

هذه الآيات الاربع من السورة ٤١ تبرز مشاهد متعددة، سنعود اليها فيما بعد، الحالة الغازية البدائية لمادة السماء، والتحديد الرمزي لعدد السموات بسبع، وسنرى معنى الرقم، والحوار الرمزي أيضاً بين الله من جهة والسماء الدنيا والارض البدائيتين من جهة ثانية. وليس المراد هنا سوى التعبير عن خضوع السموات والارض بعد تشكلهما، لاوامر الله. وقد رأى بعض الناقدين في هذا المقطع، ما يخالف خبر الدورات الست للخلق. اذ انه من اضافة دورتي تكوين

والسورة ٢٠ آية ٤ حيث أشير فيهما إلى الذي [... خلق الارض والسمٰوات العلى] بينما يوجد فيه بالعكس آيات اكثر عدداً ذكرت فيها السمٰوات قبل الارض [سورة ٧ آية ٥٤ ــ سورة ١٠ آية ٣ ــ سورة ١١ آية ٧ ــ سورة ٢٧ آية ٥٩ ــ سورة ٣٢ آية ٤ ــ سورة ٥٠ آية ٣٨ ــ سورة ٥٧ آية ٤ ــ سورة ٧٩ آية ٢٧-٣٣ ــ سورة ٩١ آية ٥-١٠].

والحق يقال، لو تركنا جانباً السورة ٧٩، فليس في القرآن مقطع واحد يحدد التتابع بصورة ظاهرة. بل لا بد من حرف العطف «و» الذي هو بمعنى «et» بالفرنسية الذي يصل نقطتين. أو «ثم» المشار اليه سابقاً، والذي يمكن أن يحدد كما في المقطع المذكور من قبل بمعنى التتابع أو الحصول معاً.

وقد بدا لي أن في القرآن مقطعاً واحداً ذكر فيه تتابع واضح بين أحداث متنوعة للخلق وهي الايات ٢٧-٣٣ من السورة ٧٩.

﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. واغطش ليلها وأخرج ضحاها. والارض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها متاعاً لكم ولانعامكم﴾.

هذا التعدد لنعم الله الارضية على الناس، المساق بعبارة تناسب مزارعين، أو بدو شبه الجزيرة العربية، مسبوق بدعوة إلى التفكير في خلق السماء. ولكن ذكر المرحلة التي بسط الله فيها الارض، وجعلها صالحة للزرع، وارد زمنياً بالضبط بعد أن تحقق تكون الايام والليالي. فهنا اذن ذكر مجموعتين من الاحداث، احداهما تتعلق بالسماء والاخرى تتعلق بالارض وهي متتابعة في الزمن. فيفرض في العرض المذكور هنا وجود الارض ضرورة قبل أن تبسط، وبالتالي فوجودها كان قائماً حين أقام الله السماء. ويستخلص من هذا ظاهرة معيّة التطور السماوي والارضي مع تداخل بعض الاحداث. فلا لزوم اذن للبحث عن أي تفسير خاص لما هو مذكور في القرآن في موضوع الخلق من ورود ذكر الارض قبل السموات أو العكس، لأن موضع الكلمات في النص هنا لا يثبت النظام الذي تم فيه الخلق اذا لم تتم تحقيقات في ذلك.

والرقم ٧ ورد في القرآن أربعاً وعشرين مرة لمعدودات مختلفات. ومعناه في الغالب هو الكثرة دون أن نتأكد من معرفة سبب هذا الاستعمال بهذا المعنى. ويبدو أن الرقم ٧ عند اليونان وعند الرومان يحمل أيضاً معنى الكثرة غير المحددة. ولقد ورد هذا الرقم في القرآن سبع مرات مضافاً إلى السماوات. ومرة بمعنى السماوات المضمرة، ومرة أخرى مع الطرائق التي هي فوقنا.

ففي السورة ٢ آية ٢٩ يقول:

﴿وهو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل خلق عليم﴾.

وفي السورة ٢٣ آية ١٧ ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

وفي السورة ٦٧ آية ٣ ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ماترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾.

وفي السورة ٧١ آية ١٥-١٦ ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً فجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾[١].

وفي السورة ٧٨ آية ١٢ ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا﴾ والسراج الوهاج هنا هو الشمس.

ولقد اتفق المفسرون جميعاً على أن معنى الرقم ٧ في هذه الآيات هو الكثرة المطلقة وليس العدد بالذات[٢].

فالسمٰوات اذن كثيرة. وكذلك الارضون. وليست هذه واحدة من المدهشات لقارىء القرآن المعاصر، أن يجد في نص من نصوص هذا العصر الاخبار بأن أراضي كثيرة مثل أرضنا يمكن أن تكون في الكون وهو ما لم يستطع الناس حتى

---

(١) نلاحظ أن القمر والشمس المسميين النيرين في التوراة معبر عنهما هنا في القرآن بطريقة مختلفة. النور للقمر والشمس شبهت بالسراج الذي يعطي النور. وسنرى بعيداً نعتهما بغير ذلك.

(٢) خارج القرآن في نصوص عصر محمد أو القرون الاوائل التي أعقبت وفاته والتي نقلت أقواله نجد الرقم ٧ مستعملاً لافادة الكثرة.

ولكن قبل الانتقال الى هذه الاعتبارات العلمية البحتة، يحسن بنا أن نلخص النقاط الرئيسية التي يعرفنا القرآن بها بمناسبة حديثه عن الخلق وهي ما يلي:

١ ــ وجود ست دورات للخلق على العموم.

٢ ــ تداخل فترات خلق السمٰوات وخلق الارض.

٣ ــ خلق الكون من جرم بدائي أوحد يشكل كتلة انقسمت على نفسها فيما بعد.

٤ ــ كثرة السموات وكثرة الاراضي.

٥ ــ وجود خلق وسيط بين «السمٰوات والارض».

النظام الشمسيّ

ان الارض والسيارات التي تدور حول الشمس تؤلف عالماً منظماً تبدو أبعاده عظيمة بالنسبة الى نظامنا الانساني. أليست الارض على مسافة تقارب ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ من الكيلومترات من الشمس؟ هذه المسافة هي ضخمة بالنسبة لكائن بشري. ولكنها ضئيلة جداً مع ذلك بالنسبة إلى معدل المسافة التي تفصل الشمس عن أبعد السيارات في النظام الشمسي، وهي أربعون مرة ضعف المسافة بين الارض والشمس. أي قريباً من ستة مليارات من الكيلومترات. وضعف هذه المسافة الذي يساوي اثني عشر ملياراً من الكيلومترات يمثل أكبر بعد في نظامنا الشمسي. ولكي يصل ضوء الشمس إلى الكوكب «بلوتن» يقضي ست ساعات يقطع بها المسافة بينهما بسرعته المخيفة التي هي [٣٠٠,٠٠٠] كلم في الثانية. مع العلم بأن ثمة مليارات من السنين يقضيها الضوء بسرعته المذهلة ليصلنا من النجوم المركزة في أطراف الفضاء المعلوم.

المجرات:

ان الشمس التي تُمثّل أحد السيارات التي تدور في فلكها مع الكواكب الاخرى المحيطة بها، ليست إلا نجماً صغيراً من بين مئات المليارات من النجوم التي تؤلف مجموعة المجرات. في ليل من ليالي الصيف نرى الفضاء كله منزرعاً بها وهي تؤلف طريق المجرة. وهو ذو أبعاد ضخمة.

ولكي يطوف الضوء كل النظام الشمسي يحتاج من الوقت إلى ٩٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وهو الوقت الذي يحتاجه لكي ينتقل من طرف إلى آخر في مجموعة من النجوم التي تؤلف مجرتنا.

ان هذه المجرة التي ننتمي اليها على ما هي عليه من الاتساع العجيب، ليست إلا جزءاً صغيراً من السماء. وهناك مجموعات عملاقة من النجوم المماثلة في طريق المجرة خارج مجرتنا، كشفت منذ خمسين سنة أو تزيد قليلاً، عندما استطاع المفكرون بغزو الفضاء الاستعانة بأجهزة بصرية أدق صنعاً من تلك التي سمحت بتحقيق تلسكوب جبل ويلسون في الولايات المتحدة. وبهذه الطريقة

الحديث وهو يتبع نظامها المتطور. ولها موت. وقد لاحظنا في النظام الاخير المتطور انفجار بعض النجوم المشتعل وهي تتحول إلى جثث حقيقية.

والكواكب، والارض بخاصة، انبثقت كلها كذلك من انفصال، تمَّ على امتداد زمني طويل انطلاقاً من التركيب الأولي الذي كانت عليه في البداية الطبقة الغازية الاساسية. والقول بأن الشمس قد تكثفت ضمن الطبقة الغازية الوحيدة، وان الكواكب تكثفت كذلك في اطار طبقة غازية كانت تحيط بها، أمر لم ينازع فيه أحد منذ ربع قرن. وينبغي أن نلاحظ [وهذا مهم جداً بالنسبة للموضوع الذي يشغلنا هنا] بأنه في تكوين الاجرام السماوية كالشمس، وكذلك في تكوين عناصر الارض، لم يحصل تتابع، بل تطور متواز ومتشابه في الاصل.

وهنا يعرفنا العلم بالعصر الذي جرت خلاله التطورات الكونية التي سبق وذكرناها. فإذا كان التقدير التقريبي لوجود مجرتنا في عمق الزمن هو عشرة مليارات سنة، فان افتراض تكون النظام الشمسي يمكن أن يكون بعد ذلك بخمسة مليارات سنة أو أزيد قليلاً.

ان دراسة الشعاع المتحرك الطبيعي، يسمح بأن يحدد عمر الارض، ووقت تكون الشمس بأربعة مليارات ونصف مليار سنة مع تحقيق حالي بمئة مليون سنة على الاقل حسب حساب بعض العلماء. ولئن كانت مئة مليون سنة تمثل زمناً طويلاً، فان مثل هذا التحقيق يبتعث العجب حقاً. اذ أن نسبة الخطأ في أعلا درجاته الزمنية هي ٠,١ أي ٢,٢٪. وكذلك فان الاختصاصيين الاستروفيزيكيين وصلوا ٤,٥ بالنسبة لتكوين النظام الشمسي إلى درجة مرتفعة من العلم عن الامتداد الزمني العام، والذي يمكن تلخيصه فيما يلي:

تكثف، ثم تقلص طبقة غازية مع دوران. ثم انفصال إلى أجرام، كان منها الشمس، والكواكب السيارة، ومنها الارض(١). هذه المكاسب العلمية عن الطبقة الغازية المظلمة الاولى وطريقة انقسامها إلى كمية عجيبة من النجوم تجمعت في مجرات لا تدع مجالاً لادنى شك في صدق فكرة تعدد العالم. ولكنها لا تزال غير مالكة لأية أداة لإثبات وجود ما يشبه الارض في الكون من قريب أو بعيد.

(١) أما بالنسبة الى القمر فهناك شبه حقيقة بأنه ثمرة انفصال متقدم للارض مع تباطؤ دورتها.

الغازية المتلألئة التي تبث من نجوم أخر يمكن أن تكون مؤلفة من «الغبار» أو «الدخان» حسب تعابير الاستروفيزيكيين، وأحياناً بالطبقة الغازية المظلمة بكثافة أقل أو مادة ما بين النجوم أكثر تركزاً، المعروفة لتشويش مقاييس التصوير الفلكي. ان وجود «جسور» من المادة بين المجرات نفسها لا شك فيه. وبالرغم من ندرة هذه الغازات، فانها يمكنها بسبب المسافة الفسيحة من الفضاء التي تشغلها وتبعاً للبعد الرحيب بين بعض المجرات والبعض الآخر، أن تتجانس مع طبقة تكون قابلة رغم ضعف كثافتها لتجاوز مجموعة أجرام المجرات. ويعلق أ. بواشو على وجود هذه الاجرام الفلكية أهمية أولية قابلة لتغير الافكار حول تطور الكون بشكل عظيم.

والآن وفي ضوء هذه المعطيات العلمية المعاصرة، ينبغي استعراض الافكار الاساسية المستخلصة من القرآن عن خلق الكون.

المواجهة مع معطيات القرآن عن الخلق:

لنتفحص النقاط الخمسة الاساسية التي يستند إليها القرآن في تحقيقاته بمناسبة الحديث عن الخلق:

١ ــ ان الدورات الست لخلق السماوات والارض حسب افادات القرآن تغطي تشكيل الاجرام السماوية والارضية، ونماء هذه الأخيرة حتى تصبح [مع اقواتها] صالحة لسكن الناس. وقد تم تشكيل الاجرام الارضية ونماؤها، وتقدير أقواتها في خبر القرآن، في أربعة أزمان، فهل علينا أن نرى العصور الجيولوجية التي وصفها العلم المعاصر، بعد أن ظهر الانسان كما نعلم في العصر الرابع؟ إن هذا ليس سوى مجرد افتراض. ولا يستطيع أحد الاجابة على هذا السؤال.

ولكن ينبغي أن نلاحظ بأنه كان لا بد لكي تشكل الاجرام السماوية، وكذلك الأرض كما توضحه الآيات ٩-١٢ من السورة ٤١ من مرحلتين. ويعلمنا العلم بأنه اذا ضربنا مثلاً تشكل الشمس وتابعها الارض [وهو المثل المقبول] فقد تم على امتداد زمني طويل بتكثف الطبقة الغازية البدائية وانفصالها. وهو بالضبط ما يقوله القرآن ببساطة بذكر امتدادات زمنية حققت انطلاقاً من «الدخان»

الكهنة الذين كانوا في زمن النفي الى بابل، والذين كانت لهم أهداف نظامية حققوها، كما صنعوا حسب تفكيرهم رواية مناسبة لنظرتهم اللاهوتية. وإنه لمن الأهمية بمكان تسجيل مثل هذه الاختلافات بين خبر التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق وبخاصة تجاه الاتهامات [التي لا مبرر لها] التي لم يقتصر في توجيهها إلى محمد ﷺ من بدايات الاسلام بأنه نقل الاخبار التوارتية. مع انها ليس لها أي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق(١) فكيف يمكن لرجل مضى على ظهوره أربعة عشر قرناً تقريباً أن يصحح الخبر في هذه النقطة بالذات، وهي جزء من مجموعة أخطاء من وجهة النظر العلمية، ويبدلها من عندياته بمعطيات أظهر العلم نهائياً صحتها في هذا العصر؟ إن مثل هذا الافتراض غير ممكن لأن القرآن قد أعطى عن الخلق خبراً يختلف كل الاختلاف عما اعطته التوراة.

أجوبة عن بعض الاعتراضات:

لا جدال بوجود تشابه بين الاخبار التوراتية والاخبار القرآنية بمناسبة مواضيع أخرى وبخاصة المواضيع المتعلقة بالتاريخ الديني. غير أنه من الطريف الانتباه إلى أننا إذا لم نعب على عيسى «عليه السلام» اعادة ذكر الوقائع الخاصة بنفس الموضوع والتعاليم التوراتية، فكيف نعيب على محمد ﷺ أن يوردها هو أيضاً في مواعظه، فضلاً عن أن نصفه بأنه غشاش ومخادع لأنه ساقها على أنها من جملة ما يوحى إليه؟(٢) ولكن أين هو البرهان الذي يثبت أن محمداً ﷺ نقل في كتابه ما علمه إياه الربانيون أو أملوه عليه؟ إنه ليس له من سند إلا ما يؤكده البعض من أن راهباً مسيحياً قد علمه الدين. ومع ذلك فلنقرأ ما كتبه ر. بلاشير «عن هذه الفرية» في كتابه «مسألة محمد» (٣).

---

(١) ليس لها أي سند فيما يتعلق بموضوع الخلق أو في أي موضوع آخر (المترجم).

(٢) ان محمداً ﷺ والرسل من قبله عيسى، وموسى وغيرهما ممن حملوا كتب الله وصحفه ورسالاته يقرون باعتزاز بأن ما نقلوه للناس ليس من بنات افكارهم، بل هو من عند ربهم. يقول تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ البقرة آية ١٣٦. المترجم.

(٣) المطابع العالمية في فرنسا ١٩٥٢.

٤ ـ عِلم الفَلك في القُرآن

أ ــ أفكار عامة في السماء:

سورة ٥٠ آية ٦. ويقصد هنا الناس على العموم.

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾.

سورة ٣١ آية ١٠.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾.

سورة ١٣ آية ٢.

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر﴾.

ففي هاتين الاخيرتين ما يدحض العقيدة التي ترى ان السماء لا يمكنها أن تنتهض الا على عمد خشية ان تقع على الارض.

سورة ٥٥ آية ٧: ﴿والسماء رفعها﴾.

سورة ٢٢ آية ٦٥: ﴿ويمسك السماء ان تقع على الارض الا بإذنه﴾.

اننا نعلم ان تباعد الاجرام السماوية على مسافات كبيرة ومتناسبة مع اهمية الاجرام نفسها يؤلف أساس توازنها. وكلما كانت متباعدة، كلما كانت القوى الجاذبة من بعضها نحو البعض الآخر ضعيفة. وكلما كانت متقاربة، كلما هوش بعضها على الآخر، كما هو حال القمر عند قربه من الارض.

«والمقصود هنا السياق الفلكي»، اذ يؤثر، حسب قانون الجاذبية، على وضع المياه في البحار، فتظهر عملية المد والجزر، اما اذا تلاقى جرمان سماويان خطأ فالتصادم لا مفر منه. والخضوع للنظام هو شرط لا بد منه لامتناع الاختلال.

وكذلك فإن خضوع السماوات للنظام الالهي مطروح في الغالب. يخاطب الله الرسول فيقول: ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾. سورة ٢٣ آية ٨٦.

وقد عرفنا من قبل أنه ينبغي الفهم من: «سبع سماوات»، سماوات كثيرة، وليس عدداً محدداً.

لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وهنا تبرز ملاحظة تفرض نفسها، هي انه في الوقت الذي وصفت التوراة الشمس والقمر «بالنيرين» وأضافت إلى أحدهما وصف الكبر، وإلى الثاني وصف الصغر، فان القرآن ينسب إلى كل منهما امتيازات أخرى غير امتياز الحجم. والتمييز ليس بالتأكيد الا تعبيرياً. ولكن كيف نبين لأناس هذا العصر دون أن نوقعهم في الحيرة والضلال، أن الشمس والقمر ليسا نيرين من طبيعة واحدة؟

ب ـ طبيعة الاجرام السماوية:

• الشمس والقمر:

ان الشمس ضياء، والقمر نور. ويبدو هذا المعنى اكثر صحة من ذلك الذي يعطيه آخرون يقلبون فيه التعريفين. والقول الصحيح، ان الفرق بين المعنيين ضعيف، فان الضياء مأخوذ من المصدر «ضو» ومعناه كما يوضحه القاموس التقليدي «فازيمرسكي» لمع، أشع [يقال عن النار] بل ويعطيه معنى النور بجانب الضياء.

على أن الفرق بين الشمس والقمر بارز في القرآن بمقارنات اخرى.

سورة ٢٥ آية ٦١: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾.

سورة ٧١ آية ١٥-١٦: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾.

سورة ٧٨ آية ١٢-١٣: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾.

والسراج الوهاج هو بوضوح الشمس.

لقد وصف القمر هنا كأنه جرم ينير «منير» من المصدر نفسه الذي هو نور. وهو منسوب إلى القمر، بينما الشمس مشبهة بالسراج والقنديل الوهاج.

الدقيق الذي نعطيه لهذه الاجرام السماوية. فالكواكب ليست مضيئة بذاتها. انها تدور حول الشمس. وأرضنا واحدة منها. واذا كنا نظن بأنه يوجد شيء منها في مكان آخر فلا نعرف الا ما هو ضمن مجموعة النظام الشمسي.

وقديماً كانت خارج الارض خمسة كواكب معروفة من الناس. وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، وجوبيتر، وزحل، وثلاثة أخرى عرفت حديثاً هي: أورانوس، ونبتون، وبلوتون.

ويبدو أن القرآن يعنيها عندما يطلق كلمة كواكب دون أن يحدد عددها. ورؤيا يوسف ذكرتها على أنها أحد عشر. ولكن يقصد من ذلك قصة خيالية[1].

بيد أن القرآن أورد تعريفاً جيداً لمعنى الكلمة في آية منه واسعة الشهرة، يبدو أن معناها العميق من حيث الاساس روحي، وفيما تبقى منه هو موضع نقاش المفسرين، وهو يمثل فائدة كبيرة على الاقل في صدد التشبيه المعقود حول كلمة يظن انه يراد منها كواكب:

هذه الآية هي في السورة ٢٤ آية ٣٥:

﴿الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب دري﴾.

ويراد هنا اتجاه ضوء على جسم يعكسه [الزجاج] مع اعطائه التماعة اللؤلؤة. كما يكون الكوكب مناراً من الشمس. هذا هو التفصيل الوحيد الموضح المتعلق بهذه الكلمة الذي يمكن الوقوع عليه في القرآن.

وقد وردت هذه الكلمة في آيات أخرى. ولكننا لا يمكننا أن نحدد في بعضها الجرم السماوي الذي تعنيه. ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً﴾ سورة ٦ آية ٧٦ ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ سورة ٨٢ آية ٢.

غير أنه يخيل إلينا، في ضوء المعارف الحديثة، أنه لا يمكن أن يراد إلا الاجرام

---

(١) لقد كان حلم يوسف قبل نبوته ارهاصا. وارهاصات الانبياء لا يداخلها الخيال الذي يمتزج فيه الحق والباطل لانها حق كلها. المترجم.

كل هذه الاعتبارات تبدو كأنما هي خارج موضوع هذه الدراسة. الا أننا ذكرناها هنا تكملة لها. وعلى كل فإن المعطيات العلمية الحديثة لا تبدو قادرة على أن تنزل الاشياء منازلها فتسلط الضوء على موضوع يتجاوز الفهم الانساني.

جـ ــ التنظيم السماوي:

إن الذي نجده في القرآن عن هذا الموضوع يتعلق أصلاً بالنظام الشمسي. بيد أن ثمة اشارات أيضاً إلى ظواهر تتعدى هذا النظام بالذات وقد اكتشفت في العصر الحديث.

في القرآن آيتان مهمتان تتصلان بمداري الشمس والقمر وهما: قوله في السورة ٢١ آية ٣٣ ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ وقوله في السورة ٣٦ آية ٤٠ ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

وفيهما ذكر بوضوح لشيء أساسي هو: وجود الافلاك للقمر والشمس كما فيهما اشارة إلى انتقال هذه الاجرام في الفضاء بحركة منظمة وخاصة.

ويبدو زيادة على ما تقدم من قراءة هذه الآيات، حدث من النوع السلبي، فيظهر بأن الشمس تنتقل في فلك، دون أن يوضح ما سيكون عليه هذا الفلك بالنسبة إلى الأرض. فقد كان الناس يعتقدون في عصر الوحي القرآني بأن الشمس تجري مع الارض كنقطة ثابتة. وهذا هو النظام المحوري المعروف الذي ظل مقيماً منذ بطليموس في القرن الثاني قبل الميلاد حتى عهد كوبرنيك في القرن السادس عشر، هذا المفهوم الذي التقى الناس عليه مع ذلك حتى عصر محمد، لم يظهر في القرآن في موضع منه مطلقاً.

وجود الافلاك للقمر وللشمس:

يراد من لفظة orbite هنا كلمة فلك في اللغة العربية. وهي التي نقلها عديد من المترجمين للقرآن، إلى اللغة الفرنسية إلى كلمة sphère «كرة» وهي حقاً المعنى الاصلي للكلمة. ولكن حميد الله، اختار لها كلمة orbite. لقد أقلقت هذه الكلمة الشراح القدامى للقرآن الذين لم يكونوا يتصورون جريان القمر والشمس

سكان الصحراء معتادون على ملاحظة السماء والاهتداء بالنجوم وضبط أوقاتهم تبعاً لحركات القمر وهي الوسائط الأيسر والاضبط بالنسبة إليهم.

ب) ان عامة الناس باستثناء الاختصاصيين في هذا الامر يجهلون المطابقة الدقيقة بين تقويم جوليان والتقويم القمري: ٢٣٥ شهراً قمرياً تطابق تماماً تسع عشرة سنة شمسية بـ ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. ان تحديد سنواتنا بـ ٣٦٥ يوماً ليس كاملا، اذ ينبغي تصحيح كل أربع سنوات [كبيسية]. ونفس الوقائع تتكرر مع التقويم القمري كل تسع عشرة سنة جوليانية [أو شمسية]. انه نظام (ميتون) الفلكي اليوناني الذي قام في القرن الخامس قبل الميلاد باكتشاف هذا التوافق الدقيق بين أزمان الشمس والقمر.

٢ ــ فيما يخص الشمس:

يصعب علينا تصور وجود فلك تتحرك الشمس في مداره في الوقت الذي نحن فيه معتادون على اعتبار نظامنا الشمسي منظماً حوله. لذلك فإنه لكي نفهم الآية القرآنية ينبغي تصور مركز الشمس في مجرتنا، وبالتالي تذكر المفاهيم العلمية الحديثة.

ان مجرتنا تحتوي عدداً من النجوم موزعة في مدار مدى عمقه المركزي أبعد من استدارته، تشغل الشمس منه موضعاً بعيداً عن مركز المدار، وتدور المجرة حول نفسها دورانها على المحور في فلك مستدير. وقد أجرى علم الفلك حساب عناصرها، وقيم shapley سنة ١٩١٧ بعد مسافة الشمس التقريبي عن مركز المجرة بـ ١٠ [كيلوبارسك] تساوي بالكيلومترات تقريباً رقم ٣ ملحقاً بسبعة عشر صفراً. ولتدور كل من المجرة والشمس حول نفسها دورة كاملة تقضي مئتين وخمسين مليون سنة تقريباً. مع العلم أن سرعة الشمس في تنقلها هذا هي مئتان وخمسون كيلومتراً في الثانية تقريباً (١).

---

(١) ان المسافة التي تقطعها الشمس بسرعتها المشار إليها في سنة واحدة هي: (٣٦٥ × ٢٤) × ٦٠ × ٦٠ × ٢٥٠ = ٧,٨٨٤,٠٠٠,٠٠٠ كلم فليتصور من يشاء بعد هذا محيط المدار في ضوء الرقم المذكور أعلاه. المترجم.

يستطيعوا الاعتماد على الاستنتاج العلمي، فيطرحون غالباً بتفكير فلسفي وضع الفيثاغوريين الذين كانوا يدافعون عن نظرية دوران الارض حول نفسها في القرن السادس قبل الميلاد. وحركة الكواكب حول الشمس. هذه النظرية التي أثبتها العلم الحديث. غير أنه ان كان مقبولا عقد مقارنة مع وضع هؤلاء الفيثاغوريين، فان من اليسير طرح فرضية محمد ﷺ كمفكر عبقري يتصور بنفسه ما اكتشفه العلم الحديث بعد قرون من ظهوره. ومع ذلك فإننا ننسى بسرعة أن نسرد بالمقابلة الصور الاخرى للنتاج الفكري لهذه العبقريات في الفهم الفلسفي، وأن نذكر الاخطاء الكبيرة التي كانت تبلورها كتاباتهم. ولهذا فإنه لا يليق بنا أن ننسى بأن الفيثاغوريين كانوا أيضاً يدافعون عن نظرية ثبوت الشمس في الفضاء حيث كانوا يجعلون منها مركز الكون، ولا يتصورون تنظيماً سماوياً الا حولها. وليس غريباً أن نجد عن الكون عند هؤلاء الفلاسفة الكبار القدماء، خليطاً من الافكار فيه الصحيح والخطأ.

والبريق الذي عكسته في مثل هذه المجالات الانسانية أفكارهم المتقدمة التي احتوتها لا ينسينا مطلقاً بالمقابل، الأفكار الخاطئة التي خلفوها. وهذه هي فقط وجهة النظر العلمية التي تفصلهم عن القرآن الذي عرض اعداداً من الموضوعات تتصل بالمعارف الحديثة دون أن يكون فيها أي تصادم مع ما أثبته العلم في عصرنا الحاضر.

تعاقب النهار والليل:

أي كائن انساني يغفل عن ذكر حركة الشمس كلما تعاقب النهار والليل في عصر كان الناس فيه يعتقدون بأن الارض مركز الكون وأن الشمس متحركة بالنسبة إليها؟ ومع ذلك فإن شيئاً من هذا لم يرد له ذكر في القرآن الذي يعالج هذا الموضوع فيما يلي:

سورة ٧ آية ٥٤ ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾.

سورة ٣٦ آية ٣٧ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾.

سورة ٣١ آية ٢٩ ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾.

في السورة ٧٠ آية ٤٠ العبارة التالية: ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾.

وفي السورة ٥٥ آية ١٧ ذكر ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾.

وفي السورة ٤٣ آية ٣٨ ذكر ﴿ .. بعد المشرقين﴾ وهي صورة للتعبير عن ضخامة مسافة البعد بين نقطتين.

ان من يلاحظ مشارق الشمس ومغاربها يعرف جيداً أن الشمس حسب الفصول تشرق من نقاط مختلفة في المشرق وتغرب أيضاً في نقاط مختلفة من المغرب.

وقد اتفق في كل من الآفاق على علامات تحدد نقاطاً قصوى تثبت مشرقين ومغربين تتركز بين كل منهما على مدى طول السنة نقاط متوسطة. والظاهرة الموصوفة هنا هي عامة ومعروفة. ولكن الذي يستدعي الانتباه بشكل خاص هو ما يعود إلى الموضوعات الاخرى المطروحة في هذا الفصل حيث يبدو فيها وصف الظواهر الفلكية الواردة في القرآن متفقاً مع المفاهيم الحديثة.

د ــ تطور عالم السماء:

أوضحنا مع استعراضنا الافكار الحديثة عن تكون الكون الذي تم منذ الطبقة الغازية البدائية حتى تكون المجرات والنجوم، وللنظام الشمسي حتى ظهور الكواكب ابتداء من الشمس في مرحلة معينة من تطورها. والمعطيات الحديثة تساعد على التفكير بأن هذا التطور يستمر ويتتابع في النظام الشمسي وبشكل أعم في الكون.

وكيف لا ندنو بعد هذا من بعض المعلومات التي نجدها في القرآن في معرض بسط مظاهر القدرة الالهية المطلقة عندما ندرك هذه المفاهيم؟ ففي أكثر من مرة يذكر القرآن بأن الله هو الذي ﴿سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ ونرى هذه العبارة في السورة ١٣ الآية ٢، والسورة ٣١ آية ٢٩ والسورة ٣٥ آية ١٣ والسورة ٣٩ آية ٥.

ولكن فكرة الاجل المسمى هذه، هي فوق ذلك مشتركة مع فكرة المستقر في السورة ٣٦ آية ٣٨ ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

وبجوار نجم Véga التي تمّ الاتفاق عليها. وذلك بسرعة قد حققت من قبل، وهي بمعدل تسعة عشر كيلومتراً في الثانية. كل هذه المعطيات الفلكية تستحق أن تذكر بمناسبة هاتين الآيتين من القرآن اللتين يمكننا أن نقول عنهما أنهما متفقتان تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة.

اتساع الكون:

ان اتساع الكون هو الحدث الاعظم المكتشف من قبل العلم الحديث. وانه لمفهوم أكيد الثبوت. والمناقشة الوحيدة منصبة فقط على الشكل الذي هو عليه.

ولاتساع الكون، نتيجة لنظرية النسبية العامة مستند طبيعي في اختبارات صورة المجرات. والانتقال النظامي نحو احمرار صورتها يتضح بتباعد المجرات بعضها عن بعض. وهكذا فإن فسحة الكون في امتداد مستمر. ويصبح هذا الاتساع أكثر أهمية كلما ابتعدنا عن أنفسنا. وان السرعات التي تنتقل بها الاجرام السماوية في هذا الاتساع المستمر يمكن أن تصل إلى رقم سرعة الضوء بل وإلى نسب أعلى منها.

فهل يمكن أن يكون قول الله في الآية التالية: ﴿والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون﴾ سورة ٥١ آية ٤٧ متعرضاً لهذه المفاهيم الحديثة؟

أليست السماء التي يعنيها القرآن هي على التحقيق العالم الخارج عن الارض؟

و«موسعون» اسم فاعل بصيغة الجمع لفعل أوسع. ومعناه بالنسبة للاشياء أفسح، أمد، جعله رحباً وفسيحاً.

بيد أن بعض المترجمين أعطوا هذه الكلمة بسبب عدم جدارتهم بادراك معناها، تفاسير تبدو لي مخطئة مثل «نحن مليئون بالسعة» [ر. بلاشير] والبعض الآخر اكتشف معناه. ولكنهم لم يجرؤوا على اظهاره. وحميد الله في ترجمته للقرآن يتكلم عن اتساع السماء والفضاء ولكن مع علامة الاستفهام. وقد أعطى البعض ممن استعانوا في تفاسيرهم بالاراء العلمية الثابتة هذا المعنى، كما هو دأب مفسري

و ــ ويبدو أن السلطان الذي يملكه الناس ليحققوا هذه الخطوة مستمد من القادر على كل شيء [1].

ان هذه الآية تشير إلى الامكانية التي سيحقق بها الناس ما نسميه في عصرنا ــ على سبيل التجاوز ــ غزو الفضاء. وينبغي التنبيه إلى أن النص القرآني لا يتعرض فقط إلى النفوذ من أقطار السموات فحسب بل من أقطار الارض أيضاً. وهذا يعني سبر الاعماق.

أما الآيتان الاخريان في السورة ١٥ آية ١٤-١٥ فيتحدث الله فيهما عن كفار مكة كما يدل عليه سياق النص في السورة:

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾.

انه تعبير عن الاندهاش أمام مشهد غير منتظر مخالف لما كان يمكن للانسان أن يتصوره. لقد بدئت الجملة الشرطية هنا بحرف «لو» الذي يفترض معه استحالة تحقيق المطلوب من المخاطبين.

ولذلك فإننا نجد أنفسنا إذا بمناسبة غزو الفضاء، أمام فقرتين من القرآن، تشير احداهما لما سيتحقق يوماً ما بفضل القوى التي سيمنحها الله للذكاء والبراعة الانسانيين. وتذكر الاخرى حدثاً لن يراه كفار مكة، لان مفهوم الشرط هنا هو لما لا يتحقق قريباً، وان كان سيراه آخرون كما تسوغ الآية الاولى افتراضه. وتصف ردود الفعل الانسانية أمام المشهد المفاجيء الذي سيواجه المسافرين في الفضاء، أبصار مضطربة مسكرة، وشعور بأنهم مسحورون.

لقد عاش هذه المغامرة المدهشة المعجزة رواد الفضاء منذ سنة ١٩٦١ تاريخ أول طيران بشري حول الارض. والواقع أننا نعرف أن السماء تبدو للمراقب الانسان السابح في الفضاء خارج جو الارض سوداء، لا بصورتها الزرقاء الظاهرة لسكان الارض التي هي نتيجة عمليات امتصاص لضوء الشمس من طبقات الجو. أما الارض فتبدو ملفوفة بهالة من اللون المشرب بالزرقة ناتج أيضاً عن نفس

(١) هذه الآية متبعة بدعوة للاعتراف بآلاء الله وهو غرض كل السورة.

٥ ـ الأرض

ولما لم يكن يبدو أي تبويب لهذه الآيات في القرآن فقد عرضناها حسب تسلسل السور الرقمي:

سورة ٢ آية ٢٢: ﴿الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون﴾.

سورة ٢ آية ١٦٤: ﴿ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾.

سورة ١٣ آية ٣: ﴿هو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

سورة ١٥ آية ١٩-٢١: قول الله: ﴿والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

سورة ٢٠ آية ٥٣-٥٤ ﴿الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى﴾.

سورة ٢٧ آية ٦١ ﴿أمن جعل الارض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

في هذه الآيات اشارة عامة إلى استقرار القشرة الارضية. ونحن نعلم بأن هذه القشرة السطحية للارض قبل برودتها في أعمارها الأولى كانت غير مستقرة. واستقرارها ليس أمراً مطلقاً، لانه لا يزال فيها مناطق تقع فيها زلازل متقطعة. أما الحاجز بين البحرين فهو صورة لبيان امتناع اختلاط مياه النهر والبحر في مستوى محدود سنراه فيما بعد.

سورة ٦٧ آية ١٥: ﴿هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

خاطئة عن نظام المياه. وقد كتب عالمان اختصاصيان في هذه الابحاث في مادة «المياه الجوفية» من الموسوعة العالمية، النبذة التاريخية الاتية:

لقد كان لـ: Thales de Milet في القرن السابع قبل المسيح نظرية دفع مياه المحيط وسقوطها بفعل الرياح على الاراضي إلى داخل القارات، ثم تسربها في التربة. وقد كان أفلاطون يؤيد هذه الافكار ويزيد بأن هذه المياه تعود إلى المحيط من خلال هوة كبيرة هي «التتار» Tetar ولقد ظل لهذه النظرية الكثير من المؤيدين بما فيهم ديكارت حتى القرن الثامن عشر.

وكان أرسطو يفترض أن بخار ماء الارض يتكثف في فجوات باردة من الجبال، ويكون البحيرات الجوفية التي تغذي الينابيع، وقد تابعه في ذلك «سينيك» في القرن الاول، وكان له العديد من المؤيدين حتى سنة ١٨٧٧، منهم J. Volger. ويعود تاريخ أول فكرة واضحة عن دور المياه إلى ١٥٨٠ لـ «برنار باليسي» الذي أثبت بأن المياه الجوفية تتأتى من تسربات مياه المطر في التربة. ثم أيد هذه النظرية «أ. ماريوت» و«ب برّو» في القرن السابع عشر.

وكانت شائعة في عصر محمد ﷺ مدركات غير صحيحة لا نجد لها أي صدى في نصوص القرآن التي ستأتي:

سورة ٥٠ آية ٩-١١ ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

سورة ٢٣ آية ١٨-١٩ ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾.

سورة ١٥ آية ٢٢ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾.

ولتفسير هذه الآية الأخيرة احتمالان. الرياح اللواقح يمكن أن تكون للغرس عن طريق نقل اللقاح إليه. كما يمكن أن يكون تصويراً يذكر بالمجانسة أو

الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾.

سورة ٣٦ آية ٣٤ ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾.

ان أهمية الينابيع وارفادها بماء المطر السالك إليها، مثبتة في الآيات الثلاث الاخيرات. وهذا الواقع يستحق أن نقف عنده لنذكر الافكار التي كانت منتشرة في القرون الوسطى، كأفكار أرسطو التي يذهب فيها إلى أن الينابيع تتكون من امدادات البحيرات الجوفية. وان «م. ر. ريمونييراس» الاستاذ في المدرسة الوطنية للهندسة الريفية للمياه والغابات، يصف في مادة [علم المياه] من الموسوعة العالمية أهم المراحل لتكون المياه، ويذكر الاعمال الرائعة القديمة للري، وبخاصة في منطقة الشرق الاوسط. وسجل بأنه كانت تتحكم فيها التجارب الفردية. إذ أن الافكار كانت ناشئة عن مفاهيم خاطئة. وتابع يقول: وينبغي انتظار النهضة [ما بين ١٤٠٠-١٦٠٠ تقريباً] لتترك الافكار الفلسفية المحضة المجال لتجارب مرتكزة على الملاحظة الموضوعية للظواهر المائية. وقد خرج ليونارد دوفنشي [١٤٥٢-١٥١٩] على ما أثبته أرسطو. كما أن لبرنارد باليسي تفسيراً دقيقاً لدور المياه وبخاصة امدادات الينابيع بمياه الامطار، في حديثه الرائع عن طبيعة المياه والينابيع طبيعية أو صناعية.

أليس هذا بالضبط ما وجدناه في الآية ٢١ من السورة ٣٩ التي تذكر سلوك مياه الامطار نحو الينابيع في الارض. والمطر والبرد هما موضوع الآية ٤٣ من السورة ٢٤:

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار﴾. على أن التالي من [السورة ٥٦ آيات ٦٨-٧٠] يتطلب شرحاً.

﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾.

فلنقارن هذه المعطيات الحديثة في علم المياه، مع تلك التي تقدمها لنا الآيات العديدة من القرآن المذكورة في هذه الفقرة وسنشعر حتماً بوجود اتفاق ملحوظ بين الا ثنين.

البحار:

لئن كانت آيات القرآن قد قدمت مادة للمقارنة مع المعارف العلمية الحديثة فيما يتعلق بدور المياه في الطبيعة على العموم، فإن الامر يختلف فيما يختص بالبحار. فليس من آية في القرآن متعلقة بها تتعارض مع المعطيات العلمية البحتة. على أنه من المفيد دوماً أن نقول بأنه ما من آية في القرآن عن البحار تحتوي افادات عن عقائد وثنية أو خرافات العصر. وان فيما يلي بعض الآيات المتعلقة بالبحار والملاحة تعرض دلائل من القدرة الالهية كموضوعات للتأمل منبثق عن الملاحظة:

سورة ١٤ آية ٣٢ ﴿وسخر لكم الفلك لتجري بأمره﴾.

سورة ١٦ آية ١٤ ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

سورة ٣١ آية ٣١ ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.

سورة ٥٥ آية ٢٤ ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام﴾.

سورة ٣٦ آية ٤١-٤٤ ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون الا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾.

يراد هنا بوضوح الفلك الذي يحمل الناس على البحر كما حملت سفينة نوح قديماً من كانوا عليها حتى أوصلتهم إلى البر.

ومن فعل الملاحظة المتعلقة بالبحر الذي يمكن انتزاعه من جميع آيات القرآن المخصصة له والذي له صورة خاصة ثلاث آيات تشير إلى بعض خصائص الانهر

من طبقة عميقة حيث تسيطر فيها حرارات مرتفعة جداً، وبخاصة مع قسم مركزي تذوب فيه الصخور، وطبقة سطحية تمثل القشرة الارضية التي هي يابسة وباردة ورقيقة جداً بسماكة بعض الكيلومترات أحياناً أو بضع عشرات الكيلومترات في أعظم سماكة لها. في الوقت الذي يزيد فيه طول نصف قطر الارض قليلاً عن ستة الاف كيلومتر بمعنى أن سماكة القشرة الارضية لا تعادل واحداً في المئة من نصف قطر الكرة. وعلى هذه القشرة إذا أمكن القول، جرت الظواهر الجيولوجية التي احدثت الانخفاضات التي هي أصل سلاسل الجبال. ويسمى تشكلها في علم الجيولوجيا «دراسة عوامل انفصال القشرة الارضية» والامتداد الزمني له اعتبار هام، لان ظهور النتوء الذي يكون وجود الجبل يقابله في العمق انخفاض مناسب من القشرة الارضية يثبت رسوها في الطبقة العليا.

وتاريخ تكون البحار والارض على سطح الكرة ثمرة بحث جديد لم يكتمل بعد، حتى فيما يتعلق بالفترات الزمنية الاقل قدماً والاحسن معرفة. ويرجح بأن ظهور المحيطات التي تؤلف المحيط المائي للكرة، يعود إلى نصف مليار من السنين تقريباً. فقد كانت القارات تكون مجموعة واحدة في آخر العصر الاول، ثم تفرقت على أن بعض القارات أو أجزاء منها حصلت بفعل عملية تشكل الجبال في منطقة المحيط [كحالة اليابسة في شمال الاطلنطي وجزء من أوروبا].

والذي يستحوذ على تاريخ تشكل الاراضي البارزة بكامله، حسب الافكار الحديثة، هو ظهور سلاسل الجبال. ويجعل البعض تطور الاراضي كلها ابتداء من العصر الاول حتى العصر الرابع في تنظيم المراحل التطويرية المقسمة إلى «ادوار» من نفس الاسم وكل تشكلات النتوء الجبلي الذي تلقى انعكاساته على التوازن بين البحار والقارات. ولقد انتقصت بعض اجزاء من الاراضي الظاهرة لتكشف عن غيرها. ثم حور منذ عدد من الملايين من السنين تقسيم سطوح القارات والبحار. والسطوح اليابسة لا تشغل من كوكب الارض الا ثلاثة اعشار مساحتها.

وهكذا يمكن ان تتلخص التطورات التي تمت في ملايين السنين الغابرة بكثير من النقص وعدم الكمال.

ونفس العبارة تتكرر في السورة ١٦ آية ١٥. ونفس الفكرة معبر عنها باسلوب مختلف في السورة ٢١ آية ٣١ ﴿وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم﴾.

هذه الآيات تفيد بأن الطريقة التي أرسيت بها الجبال هي مناسبة لرسوخها وثبوتها وهو ما يتفق تماماً مع المعطيات الجيولوجية.

د ــ الفضاء الارضي:

في القرآن بالاضافة لبعض الصور المتعلقة بشكل دقيق جداً في السماء التي عولجت في الفصل السابق، بعض فقرات تختص بظواهر تقع في الفضاء، تؤكد بأننا لا نجد فيها ما يضاد المعرفة التي وصلنا إليها عن الظواهر المذكورة.

الارتفاع في الجو:

ومن المعروف عادة بأن الانسان يشعر بضيق لدى ارتفاعه في الجو، وان شعوره هذا يزداد بنسبة الارتفاع فيه. هذه الظاهرة أوضحها القرآن في السورة ٦ آية ١٢٥ ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾.

لقد زعم البعض بأن هذه الظاهرة لم تكن معروفة من العرب في عصر محمد ﷺ. ولكن وجود القمم المرتفعة في شبه الجزيرة العربية إلى [٣,٥٠٠] ثلاثة الاف وخمسمئة متراً [١] يجعل جهل صعوبة التنفس لدى الارتفاع في الجو بعيد الاحتمال كما شاء بعض المفسرين أن يرى فيها إخباراً مسبقاً عن غزو الفضاء. لكن يبدو أيضاً أن من الواجب استبعاد هذا الرأي في هذا المجال بالنسبة لهذا النص على الأقل.

كهربية الجو:

وان كهربية الجو ونتائجها كالصاعقة والبرد مذكورة فيما يلي:

---

(١) ان مدينة صنعاء عاصمة اليمن التي كانت مسكونة في عصر محمد ﷺ هي على ارتفاع الفين وأربعمئة متراً.

الناس بعد محمد ﷺ بقرون، إلى أن ثبت عدم صحته أخيراً. لذلك فإن القرآن يكتفي بالتحدث فقط عن دور مؤشر الظل الذي تلعبه الشمس، الامر الذي يجعلنا نلاحظ أيضاً غياب التناقض بين الطريقة التي يعرض بها القرآن الظل وما نعرفه عنه في عصرنا الحديث.

لقد جمعنا في هذا الفصل الكثير من الآيات المفرقة في الكتاب التي تذكر أصل الحياة وصوراً من عالم النبات، وموضوعات عامة أو خاصة متعلقة بعالم الحيوان. وترتيبها في مجموعات على أسس عقلية يمكن أن يعطينا فكرة عامة عن معطيات القرآن في كل هذه المسائل.

على أن اختبار نص القرآن بالنسبة لموضوعات هذا الفصل كما بالنسبة للفصل اللاحق دقيق أحياناً بسبب بعض الصعوبات الملازمة للمفردات التي لا يمكن تجاوزها الا بعد أن نأخذ بالاعتبار المعطيات العلمية المتصلة بالموضوع الذي نعالجه. وبخاصة فيما يتعلق بالكائنات الحية كالنبات والحيوان والانسان التي لا بد من مواجهتها مع معطيات العلم لايجاد معنى لبعض تأكيدات القرآن في هذا الصدد.

ونفهم من الآيات بأن عدداً من الترجمات لهذه النصوص من القرآن التي قام بها بعض الادباء محكوم عليها بعدم الصحة من قبل رجال العلم. وكذلك بالنسبة لبعض التفسيرات التي لا يملك أصحابها المعارف العلمية الضرورية لفهم النص.

أ ــ أصل الحياة:

لقد شغلت هذه المسألة الانسان في كل زمن فيما يتعلق به وبجميع الكائنات المحيطة به وسنتفحصها هنا بنظرة عامة. ولقد كان حال الانسان الذي نزل على هذه الارض، وتكاثره موضوع التوسعات التي سنمارسها في الفصل التالي.

ومع تصدي القرآن لأصل الحياة في خطها العام، فإنه يوجز ذكره جداً في آية تعني أيضاً بموضوع تكون الخلق الذي سبق ذكره وشرحه.

سورة ٢١ آية ٣٠ ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾.

ب ـ عالم النبات:

لا يسعنا هنا أن نورد النصوص الكثيرة في القرآن التي تحدثت عن نعمة الله من خلال التحدث عما للمطر من فضل في انبات الزرع. وفيما يلي سنختار ثلاث آيات منها:

سورة ١٦ آية ١١: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات﴾.

سورة ٦ آية ٩٩: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً. ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مُشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾.

سورة ٥٠ آية ٩-١١ ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾.

ويضيف القرآن إلى هذه الاعتبارات العامة، غيرها مما يوجه إلى صور أكثر تحديداً.

التوازن السائد في عالم النبات:

سورة ١٥ آية ١٩: ﴿والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾.

اختلاف الأغذية:

سورة ١٣ آية ٤: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

انه لمن المهم التنبيه إلى وجود هذه الآيات، لتسليط الضوء على اعتدال

سورة ١٣ آية ٣ ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين﴾.

اننا نعلم بأن الثمرة هي نهاية دورة التكاثر لدى النباتات العالية ذات التنظيم الاكثر كمالا وتركباً. يسبقها مرحلة الزهرة مع أعضاء الذكورة [اللقاح] والانوثة (البويضات) التي بعد حملها اللقاح تعطي الثمرات التي تخرج الحب بعد نضجها. فكل ثمرة اذن تتطلب وجود أعضاء الذكورة والانوثة، وهذا ما تريد الآية القرآنية قوله.

ومع ذلك فإنه ينبغي أن يلاحظ بأن بعض الانواع يأتي من زهر غير ملقح [ثمر رجعي] كما هو الحال في الموز، وبعض أنواع الاناناس والتين والبرتقال والعنب. وهذه الثمار رغم ذلك منحدرة من نباتات ذات جهاز تناسلي.

واكتمال عملية التكاثر يتم بامتداد تفريخ الحبة بعد انفتاح قشرتها الخارجية [التي يمكن أن تكون متركزة في النواة] التي تسمح بخروج الجذور التي تتشعب في الارض وهذا لضرورة المحافظة على الغرسة ذات الحياة البطيئة للحبة ولتنمو وتعطي كياناً جديداً. ويشير القرآن إلى عملية الانبات هذه في السورة ٦ آية ٩٥: ﴿ان الله فالق الحب والنوى﴾.

والقرآن الذي أكثر من ترداد وجود هذه الازواج في عالم النبات يسجل مفهوم الزوجية هذا في اطار أعم ذي حدود غير دقيقة في السورة ٣٦ آية ٣٦.

﴿سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

ويمكننا أن نعقد العديد من الافتراضات على معنى هذه الاشياء التي كان يجهلها الناس في عصر محمد ﷺ، والتي من أجلها نرى جلياً في أيامنا حلقة أو بنية مزدوجة في نظام الكائنات الدقيقة الكيان، كما في الكائنات العظيمة الكيان، في العالم الحي كما في العالم اللاحي. والمهم أن نحتفظ بمفاهيم واضحة المعاني، وان نلاحظ مرة أخرى بأنا لا نجد فيها اختلافات مع العلم في هذا العصر.

وسنشرح في الفصل التالي لماذا استعملت للانسان نفس كلمة التناسل التي استعملت لغيره.

٢ ــ وجود مجموعات الحيوانات:

سورة ٦ آية ٣٨: ﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه، الا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾.

في هذه الآية نقاط كثيرة تحتاج إلى شرح. ويبدو أولاً، أن مصير الحيوانات بعد موتها مذكور. اذ ليس للاسلام على ما يظهر في هذه النقطة أي مذهب [١]. ثم أن الصيرورة العامة التي يبدو أنها موضع بحث هنا يمكن أن تفهم على أنها صيرورة مطلقة [٢] أو صيرورة نسبية محددة في بنيات وتنظيمات مرتبة مشترطة شكلاً من السلوك. وللحيوان تحرك نتيجة للمؤثرات الخارجية المتنوعة وفقاً لتكييف خاص.

ويرى بلاشير أن مفسراً قديماً كالرازي يفكر بأن هذه الآية لا تعالج الا أفعالاً غريزية يسبح الحيوان بها الله. والشيخ سي أبو بكر حمزة في شروح ترجمته للقرآن، يتكلم عن «الغريزة التي تدفع حسب الحكمة الالهية، كل الكائنات للتجمع والتكاثر والتنظيم في طوائف تتطلب لتكون قوية معافاة أن يكون عمل كل عضو منها في صالح المجموعة.

لقد درس هذا السلوك الحيواني بدقة أخيراً في هذه العشرات من السنين وتوصل إلى التحقق من وجود طوائف حيوانية حقيقية. ولا شك بأن تفحص نتيجة عمل مجموعة استطاعت منذ زمن طويل أن تحمل على تبني ضرورة تنظيم المجموعات. ولكن ليس هذا الا في فترة حديثة حيث اكتشفت فيها الطرق التي تتحكّم في مثل هذه التنظيمات لبعض الانواع. واحسن حالات الحيوان دراسة وأكثرها

---

(١) الراجح أن هذه الحيوانات تبعث يوم القيامة ثم تحاسب فيقتص حتى للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ثم تموت جميعها. المترجم.

(٢) رأينا في المدخل للقسم الثالث من هذا الكتاب ما ينبغي التفكير فيه بالنسبة لحالة الانسان من الصيرورة.

العنكبوت:

ذكرت العنكبوت في القرآن للفت النظر إلى دقّة ورقّة بيتها الذي هو أوهن البيوت. انه بيت سريع الزوال كما يقول القرآن. مثله كمثل النصرة التي ينشدها الناس لدى من اتخذوهم أولياء من دون الله. سورة ٢٩ آية ٤١: ﴿مثل الذين اتخذوا أولياء من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾.

ان نسيج العنكبوت مصنوع في الواقع من خيوط حريرية متدنية الصنف، تسيل من لعابها وهو من الدقة بحيث لا يستطيع الانسان أن يقلده.

ويتساءل علماء الطبيعة عن التصميم العجيب للعمل المسجل من خلايا الحيوان العصبية، الذي يسمح لها بصناعة نسيج كامل الهندسة. ولكن القرآن الكريم قد سكت عنه.

الطيور:

أما الطيور فهي موضع أحاديث متكررة في القرآن، إذ دخلت في مراحل من حياة ابراهيم ويوسف وداود وسليمان وعيسى. وليس لهذه الاحاديث أية صلة بالموضوع الذي نتناوله هنا. فقد لاحظنا سابقاً الآية المتعلقة بوجود طوائف من الحيوانات الارضية والطيور.

سورة ٦ آية ٣٨: ﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم﴾.

وثمة آيتان أخريان تبرزان خضوع الطيور الدقيق لقدرة الله.

سورة ١٦ آية ٧٩: ﴿ ألـم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله﴾.

سورة ٦٧ آية ١٩: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن﴾.

ان من الممتع ترجمة فعل «أمسك» الوارد في كل من هاتين الآيتين التي

ان كل عالم بالحيوان يجيب عندما نقدم إليه مثل هذه الترجمة للنصوص بأنها غامضة جداً. إذ لا يبدو فيها شيء من الانسجام مع المفاهيم الحديثة حتى البدائية. ومع أن هذه الاسطر من صنع أكابر علماء العربية، إلا أننا نعلم جيداً بأن المترجم مهما كان بارعاً عرضة لارتكاب خطأ في ترجمة المفاهيم العلمية الواردة فيها إذا لم يكن اختصاصياً في المادة المعنية هنا.

والترجمة التي تبدو لي صحيحة هي التالية:

«في الحقيقة ان لكم في حيوانات قطعانكم عبرة. تعطيكم للشرب مما في داخل جسمها والذي ينتج من الصلة ما بين محتوى الامعاء والدم حليباً صافياً سائغاً للشاربين».

ان هذه الترجمة قريبة جداً مما يوضحه تفسير المنتخب في طبعته المنشورة سنة ١٩٧٣ من قبل المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة الذي يعتمد على معطيات من علم أعضاء الحيوان الحديث.

والترجمة المقترحة هذه محققة من جهة مفرداتها كما يلي:

فقد ترجمت «في داخل أجسامها» لا كما ترجم بلاشير أو الاستاذ حميد الله «في بطونها». لان كلمة بطن [العربية] تعني وسط وداخل أي شيء، بقدر ما تعني كلمة بطن [الفرنسية] ventre هذه الكلمة ليس لها معنى تشريحي دقيق. ولقد يبدو لي أن [في داخل الجسم] متفق تماماً مع السياق.

ومفهوم كلمة «مصدر» مركبات الحليب معبر عنها بحرف «من»، وبالظرف «بين» الذي لا يعني فقط «خلال» أو ضمن كما في الترجمتين الاخريين المذكورتين، ولكن يصلح للتعبير به أيضاً باننا نضع بين شيئين أو شخصين الواحد بحضرة الآخر. وينبغي لالتقاط معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية أن نذكر مفاهيم في علم الاعضاء الحيواني.

تتكون المواد الاساسية التي تؤمن تغذية الجسم بوجه عام من تحولات كيميائية تجري في طول القناة الهضمية. وهذه المواد تأتي من عناصر حاضرة في محتويات الامعاء. وعندما تصل إلى المرحلة المراد فيها التحول الكيميائي، تمر عبره غشاوة

غير أن الامر يختلف بالنسبة إلى القرآن، اذ يثير في أكثر من موضع منه مركبات الانسان الدقيقة ويذكر عن التكاثر عبارات محددة لا يشوب أي معلوم منها شائبة بطلان. فكل شيء معبر عنه بعبارات بسيطة سهلة الفهم وشديدة الاتفاق مع ما سيكشفه العلم بعد ظهوره بزمن طويل.

ان التكاثر البشري وقد أثير في عشرات الآيات القرآنية دون ترتيب ظاهر، قد عرض من خلال تعاليم تركز كل منها على نقطة خاصة أو أكثر. ولا بد لتكوين فكرة عامة عنها من اعادة تصنيفها. وقد بسطنا شرح هذا الموضوع كما سبق في غيره من المواضيع.

تذكير ببعض المفاهيم:

من الضرورة التذكير ببعض المفاهيم التي كانت مجهولة عن عصر الوحي القرآني والعصور التي لحقت به.

لقد تأكد التكاثر البشري بمجموعة تطورات مشتركة فيما بين ذوات الثدي، فتوجد البويضة التي انفصلت عن المبيض في نقطة انطلاقها في الخرطوم في وسط دورة العادة الشهرية. واللقاح هو مني الرجل. وبدقة أكثر هو السبرماتوزييد، لان خلية واحدة تكفي. ولكي يتحقق التلقيح اذن تكفي كمية ضئيلة جداً من هذا السائل المنوي الذي يحول السبرماتوزييد باعداد ضخمة جداً [عشرات الملايين في الدفقة الواحدة] ان هذا السائل ينزف من الغدد ويظل محفوظاً مؤقتاً في شبه خزانات وأقنية تفرغ نهائياً في المسالك البولية. وثمة غدد ملحقة بها مبعثرة على طول هذه المسالك تضيف إلى نفس المني رشحات أخرى ثانوية خالية من عناصر الاخصاب.

وهكذا يتم تكون البويضة الملقحة في نقطة معينة من جهاز المبيض الانثوي، فتنزل عبر خراطيم في الرحم، وتعشش في سطحه، حيث لا تتأخر عن التعلق بدقة مندمجة في سماكته، وفي المخاط وفي العضل بعد تكون الغشاوة وبمساعدتها. وإذا تركزت هذه البويضة الملقحة مثلا في الخرطوم بدل أن تتركز في الرحم توقف الحمل.

وبجانب هذه الملاحظة العامة يوجه النص القرآني الانتباه إلى نقاط عدة تتعلق بالتكاثر التي يبدو أنه يمكن ترتيبها كما يلي:

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل.

٢ ــ طبيعة السائل اللقاح.

٣ ــ حضانة البويضة الملقحة.

٤ ــ تطور الجنين.

١ ــ اللقاح يتم بقليل من السائل:

كرر القرآن ذكر هذه النقطة احدى عشرة مرة مستعملاً التعبير الذي نجده فيما يلي:

سورة ١٦ آية ٤ ﴿خلق الانسان من نطفة﴾.

ونجدنا مضطرين لترجمة كلمة نطفة إلى اللغة الفرنسية بعبارة (de sperme) Goutte وذلك بسبب العجز في اللغة الفرنسية عن امتلاك الكلمة الدقيقة المناسبة لها. وينبغي أن نقول بأن هذه الكلمة مشتقة من فعل نطف الذي يعني سال ورشح. ويستخدم للاشارة لما يمكن أن يبقى في سطل بعد تفريغه. فهو اذن يشير إلى كمية ضئيلة جداً من السائل حيث يصبح المعنى الثاني قطرة من الماء. وهنا قطرة من المني للتعبير عنها في آية أخرى بكلمة مني. سورة ٧ آية ٣٧: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾.

والمراد من كلمة «مني» العربية sperme في اللغة الفرنسية. وهناك آية أخرى تبين أن النطفة التي هي محل الحديث توضع في قرار مكين الذي يعني بوضوح تام الرحم.

سورة ٢٣ آية ١٣ يقول الله: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾.

على أنه ينبغي أن يضاف هنا بأن وصف «القرار» في الآية بكلمة «مكين» لا يمكن ترجمته إلى اللغة الفرنسية كما يبدو لي. وذلك لانه يعبر عن فكرة المكان

وهو خلايا متطاولة مزودة بشعيرات مطمورة في سائل حليبي].

ب ــ المبايض، وهي خزانات السبرماتوزويد موجودة قريباً من البروستات لها رشح خاص خال من عناصر التلقيح.

جـ ــ والبروستات وهي ترشح بسائل يكسب المني لونه الكريمي ورائحته الخاصة.

د ــ الغدد المساعدة للمسالك البولية: غدد كوبر أو ميري، ترشح بسائل سلس، وغدد ليتري ترشح بالمخاط.

هذه هي أصول هذه «الامشاج» التي يبدو القرآن متكلماً عنها كثيراً.

على أنه بالاضافة إلى ما سبق، إذا تكلم القرآن عن سائل ملقح مكون من عناصر مختلفة، فهو ينبهنا إلى أن نسل الانسان يتحقق من بعض الاشياء التي يمكن أن تكون مستخرجة من هذا السائل. وهو معنى الآية ٨ من السورة ٣٢.

﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾.

والكلمة العربية «سلالة» مترجمة هنا بكلمة quintessence التي تعني «مستخرجاً من آخر» أو «أفضل جزء من شيء ما» وسواء ترجمت بهذه الطريقة أو تلك فإنها تبقى تعني جزءاً من كل.

والذي يكسب البويضة اللقاح ويؤمن التكاثر خلية ذات شكل طويل جداً، انها بطول واحد من عشرة الاف من المليمتر. عنصر واحد من عشرات الملايين المتدفقة من مني الانسان في ظروفه الطبيعية [1] تتوصل للدخول إلى البويضة بينما يبقى عدد كبير منها في الطريق دون أن يتمكن من قطع المسافة التي توصل إلى البويضة من مدخل الرحم عبر فجوة الجهاز التناسلي الانثوي وخرطومها.

فالذي أبدى نشاطه اذن هو جزء دقيق جداً انفصل من سائل التكوين الشديد

(١) يمكن أن نقدر السنتيمتر المكعب من المني يحوي ٢٥ مليوناً من السبرماتوزويد بظروف طبيعية بالدفقة من بعض السنتيمترات المكعبة.

سورة ٢٣ آية ١٤ ﴿... ثم خلقنا النطفة علقة﴾.

سورة ٤٠ آية ٦٧ ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾.

سورة ٧٥ آية ٣٧-٣٨ ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى﴾.

ان العنصر الذي يتقلب فيه الحمل، موصوف في القرآن كما شاهدنا بكلمة مستعملة دائماً في العربية لتعني utérus الرحم. وقد أعطى في بعض السور اسم القرار المكين سورة ٢٣ آية ١٣ التي ذكرت سابقاً والسورة ٧٧ آية ٢١ (١).

٤ ــ تطور الجنين داخل الرحم:

ان وصف مراحل تطور الجنين كما هو في القرآن يتجاوب مع كل ما نعرفه اليوم عن ذلك. وهو لا يحتوي أية عبارة ينتقدها العلم الحديث.

ثم ان الجنين بعد «شيء ما يتعلق» وهو التعبير الذي رأينا إلى أي حد هو صحيح، يمر كما يقول القرآن بمرحلة المضغة [مثل اللحم الممضوغ] ثم يبدو الهيكل العظمي مكسواً باللحم [موصوف بكلمة مختلفة عن الاولى ونعني بها اللحم الطري] سورة ٢٣ آية ١٤ ﴿فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾.

وترجمة كلمة «مضغة» في الفرنسية هي La chair comme marchée أما ترجمة «اللحم» في الفرنسية فهي La chair comme la chair fraiche وهذا التفريق بين

---

(١) في آية أخرى من «سورة ٦ آية ٩٨» يتحدث القرآن عن القرار المكين للانسان المعبر عنه بعبارة قريبة جداً للسابق. ويبدو أنه يقصد رحم الامومة. اني شخصياً أرى أن هذا هو معنى الاية. ولكن تفسيرها بتفصيل يستجر توسعاً ليست هذه الدراسة مكانه، ومن الشروح الممتعة جداً شرح الآية التالية من سورة ٣٩ آية ٦ ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

يرى بعض المعاصرين من مغزى القرآن في هذه الآية ما يفيد التصاميم التشريحية الثلاثة التي تصون الطفل أثناء الحمل: حاجز البطن، الرحم نفسه، اغلفة الجنين (البلازنتا ــ الغشاوة والسائل اميتونيك) وينبغي لاكون كاملاً أن أورد الآية كلها لان التفسير المعطى لا يبدو لي قابلاً للمناقشة تشريحياً. ولكن هل هذا هو الذي يريد أن يقوله القرآن؟

«كل من يعيش يأتي في البداية من بيضة» وأن الجنين يتكون ويتطور جزءاً بعد جزء. ولكن العلم مع كونه في طور نشأته في هذا العصر، قد استفاد كثيراً من الموضوع الذي نعالجه باختراع المجهر. فقد كانوا يناقشون أيضاً في الادوار المتتالية للبيضة وللسبرماتوزويد.

وكان العالم الطبيعي الكبير [بيفون] من مجموعة المؤمنين بالاصل البيضوي مع [بوني] الذي دعم نظرية اندماج البذرة المنوية. بمعنى أن مبيض حواء أم البشر كان يحوي بذر كل الكائنات البشرية، مندمج بعضها بالبعض الآخر. ولقد ظلت هذه الفرضية حاصلة على بعض التأييد حتى القرن الثامن عشر، وقد علم الناس ذلك من القرآن من قبل أكثر من ألف سنة، أي في عصر كثرت فيه المذاهب الوهمية. لقد كانت هذه النصوص عن التكاثر البشري تعبر في كلمات بسيطة عن حقائق أولية استغرق اكتشافها من الناس أجيالا.

القرآن والتربية الجنسية:

يعتقد عصرنا بأنه أنجز الكثير من الاكتشافات في كل الحقول. كما يعتقد بأنه أتى بجديد في مادة التربية الجنسية. ويرى أن انفتاح الشباب على معرفة مسائل الحياة هي من اكتساب العالم الحديث. كما يحمل الكثيرون الاديان مسؤولية جهالة القرون التي خلت، والتي كانت مقصودة في هذا الموضوع.

وعليه فإن في كل ما سبق وعرض، لبرهاناً على أنه منذ أربعة عشر قرناً طرحت مسائل نظرية ــ إذا صح القول ــ تتعلق بالتكاثر البشري حملت إلى معرفة الناس بنسبة ما كان بإمكانهم فعله، مع العلم أنهم ما كانوا يملكون معطيات في علم التشريح وعلم تركيب الاعضاء تساعد على تطورات واسعة. وانه كان ينبغي لكي يكون مفهوماً الاستعانة بلغة سهلة ومتجانسة مع القدرة العقلية لسامعي الموعظة.

فلم تمر الصور الممارسة مطلقاً دون الحديث عنها. ففي القرآن مجموعة من التفاصيل عن الحياة العملية على العموم، عن السلوك الذي ينبغي أن يكون للناس في عديد من ظروف وجودهم بما فيها حياتهم الجنسية.

الآيات مسألة العزل التي لا يشير القرآن إليها في آية منه.

وبالاضافة إلى ذلك فإن القرآن لم يذكر موضوع اسقاط الحمل. غير أن النصوص العديدة المذكورة سابقاً عن التطورات المتعاقبة للجنين هي من الوضوح بحيث يعتبر الانسان معها متشكلاً منذ الفترة الموسومة بوجود «العلقة» وفي هذه الظروف، فإن احترام القرآن المطلق للانسان، المؤكد دائماً فيه، يستلزم استنكار عملية الاسقاط أصلا. وهو الموقف الذي تقفه جميع الديانات الموحدة في هذا العصر.

هذا وان العلاقات الجنسية مباحة في فترة الليل من أيام الصوم طيلة شهر رمضان والآيات التي تحض على الصوم فيه هي التالية:

سورة ٢ آية ١٨٧: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾.

لكن الامر في أيام الحج هو على العكس إذ تحرم الآيات مباشرة النساء فيها تحريماً عاماً لا استثناء فيه.

سورة ٢ آية ١٩٧: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾.

وكما أن تحريم مباشرة النساء في أيام الحج واضح، فكذلك تحريم أمور أخرى كالصيد والجدال وغيرها.

ويذكر القرآن الحيض أيضاً بمناسبة الطلاق.

سورة ٦٥ آية ٤: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن. وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾.

وفترة «العدة» هي التي تمتد بين إعلان الطلاق، واللحظة التي يصبح فيها ناجزاً. وللنساء اللواتي وصفن بأنهن يئسن من المحيض، أي أصبن بانقطاع الحيض نهائياً فترة معقولة مدتها ثلاثة أشهر. فإذا انتهت أمكنهن الزواج ممن يشأن.

الروايات القرآنية والروايات التوراتية

لقد خصصت السورة ٣ من القرآن والسورة ١٩ [التي تحمل اسم مريم] مقاطع طويلة لآل عيسى، تروي طهارة والدته مريم، وصباها، واخبارها بأمومتها العجيبة. فعيسى مدعو دوماً في القرآن «ابن مريم» ونسبه أساساً لوالدته كما هو منطقي لانه لا أب له في الحياة. وبهذا يفترق القرآن عن انجيلي متى ولوقا، اللذين ــ كما سبق وعرفنا ــ جعلا نسب عيسى متصلا باجداده من ناحية الذكور.

لقد وضع القرآن عيسى من خلال نسبه الامومي على خط نوح وإبراهيم ووالد مريم [عمران كما هو في القرآن]. سورة ٣ آية ٣٣-٤٣ ﴿ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض﴾.

وهكذا فإن عيسى هو من نسل نوح وإبراهيم عبر والدته مريم ووالدها عمران. ولا توجد في القرآن أخطاء الاناجيل الاسمية المتعلقة بنسب عيسى، واستحالات النظام النسبي الذي لدى العهد القديم فيما يتعلق بنسب إبراهيم الذي درسناه في الجزء الاول والثاني من هذا الكتاب.

بل ان الموضوعية لتفرض علينا أن نسجل هذا الواقع الذي يتخذ كل أهميته بوجه تأكيدات أولئك الذين يدعون دونما سند أن محمداً ﷺ كاتب القرآن، وانه قد توسع بالنقل عن التوراة. اننا نتساءل هنا عن الحجة وعمن صرفه عن ان ينسخها، على الاقل فيما يخص نسب عيسى، ليدرج في القرآن بدلا منه التصحيح الذي جعل نصه بعيداً عن كل انتقاد يثار من المعارف الحديثة. بينما نصوص الاناجيل بالمقابل ونصوص العهد القديم هي من هذه الزاوية غير مقبولة أبداً؟!

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة:

لقد سبق وعالجنا بعض الصور من هذه الموازنة مع العهد القديم، كما كان موضوع خلق العالم حسبما هو وارد في التوراة هدف دراسة نقدية في الجزء المخصص من هذا الكتاب للعهد القديم. والموضوع نفسه قد حلل في المقطع المعطى من الوحي القرآني. وقد عقدت المقارنات في هذا الموضوع ولم يعد من مجال للعودة إليه.

٢ ــ الطوفان

تذكير بالرواية التوراتية.

والانتقادات التي أثارتها.

ان تحليل رواية الطوفان في الجزء الاول من هذا الكتاب كما هي واردة في العهد القديم ساق إلى الملاحظات التالية: ليس في التوراة رواية واحدة للطوفان، بل روايتان كتبتا في عصور مختلفة:

١ ــ الرواية اليهوية. وهي تعود إلى القرن التاسع قبل المسيح.

٢ ــ الرواية الكهنوتية. وهي تعود إلى القرن السادس قبل المسيح. وقد سميت بهذا الاسم لانها كانت من عمل كهنة ذلك العصر.

هاتان الروايتان ليستا موجودتين الواحدة بجانب الاخرى. بل هما متداخلتان. عناصر أحدهما مدرجة بين عناصر الاخرى، مع تعاقب فقرات عائدة لمرجع، وفقرات أخرى عائدة لمرجع آخر. ويظهر شراح ترجمة سفر التكوين الموضوعة من قبل الاب دوفو الاستاذ في المدرسة التوراتية في القدس التوزع الكامل لهذه الفقرات بين المرجعين، تبدأ الرواية وتنتهي لفقرة يهوية. عشر فقرات يهوية توجد في المجموع. بين كل واحدة منها تدرج فقرة كهنوتية [فتكون تسع فقرات كهنوتية في المجموع].

هذا التلوين في هذه النصوص لا يحقق الانسجام في صورة تتابع الاحداث، لان بين المرجعين تناقضات فادحة. وقد كتب الاب دوفو بأنهما «تاريخان لمصيبة الطوفان وقعت بحسبهما من عوامل مختلفة وفي فترة زمنية مختلفة حمل فيها نوح في السفينة عدداً مختلفاً من الحيوانات».

كلها [باستثناء ركاب السفينة] في القرن الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين قبل المسيح، وفي نفس هذا العصر، كانت قد ازدهرت في عدة جهات من الارض مدنيات، انتقلت آثارها إلى الاجيال اللاحقة؟! لقد كانت هذه الفترة بالنسبة إلى مصر مثلا الفترة المتوسطة التي أعقبت نهاية الامبراطورية القديمة، وكانت بها بداية الامبراطورية المتوسطة. أما وقد تأكدنا مما نعرفه عن تاريخ هذه الحقبة، فإن من المضحك دعم من يقول بأن الطوفان هذا، قد انهدمت به كل المدنيات اذ ذاك.

وهكذا يمكننا من وجهة النظر التاريخية، أن نؤكد بأن رواية الطوفان كما تنقلها التوراة متناقضة تناقضاً صريحاً مع المعارف الحديثة. ووجود هاتين الروايتين، هو الدليل الواضح على تلاعب الناس بالكتابات المقدسة.

الروايات القرآنية للطوفان:

يعالج القرآن القضية بطريقة مجملة مختلفة لا تثير الانتقادات من وجهة النظر التاريخية. انه لا يسرد للطوفان قصة متتابعة. وانما يتكلم في عدد من سوره عن العقاب الاليم لقوم نوح. والرواية الاكثر كمالا فيه، هي التي في السورة ١١ والآيات ٢٥-٤٩ منها، والسورة ٧١ التي تحمل اسم نوح، وتثير بخاصة ارشاده ونصحه لقومه كما هو دأب الآيات ١٠٥ حتى ١١٥ من السورة ٢٦. ولكن قبل مواجهة تتابع الوقائع المتحدث عنها، ينبغي تحديد مكان الطوفان كما يسرد قصته القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التي أنزلها الله على المجموعات الخاطئة، لنقضها أوامره بصورة خطرة.

وفي الوقت الذي تتحدث التوراة فيه عن طوفان عالمي، لمعاقبة كل الانسانية الكافرة، يذكر القرآن على العكس عدة عقوبات أنزلت على مجموعات محددة. والآيات ٣٥-٣٩ من السورة ٢٥ توضحها في: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً. وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعادا وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيراً﴾.

من كل نوع من ذكر وأنثى[1] وزوجاً واحداً من الأخريات].

ـــ وحسب آية يهوية معدلة [٧، ٨ سفر التكوين] حملت زوجاً من كل نوع طاهر أو نجس.

هذا وليس بين رواية الطوفان الواردة في السورة ١١ في الآيات ٢٥-٤٩ منها والسورة ٢٣ آيات ٢٣-٣٠، ورواية التوراة اختلافات معنوية خاصة.

وتروي التوراة أن الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح هو «أرارات» بينما يذكر القرآن بأنه جبل الجودي [سورة ١١ آية ٤٤] مع العلم أن الجودي ذروة جبال أرارات في أرمينيا. ولكن لا شيء يثبت أن الناس لم يمارسوا تغييرات في الاسماء لتوافق الروايتين. ويؤكد ذلك [ر. بلاشير] الذي يرى أن هناك سلسلة جبال لها اسم جودي في العربية. ويمكن أن تكون هذه الموافقة في الاسماء من صناعة الناس.

وفي النهاية، فإن هناك خلافات هامة بين روايات القرآن وروايات التوراة، لا يخضع بعضها للنقد لعدم توفر المعطيات الموضوعية. ولكننا عندما نجتهد في تحقيق أخبار الكتب المقدسة بمساعدة المعطيات الاكيدة، فإن عدم مطابقة الرواية التوراتية ـــ في تحديدها وقت الطوفان ومدة دوامه ـــ لما حصلته المعارف الحديثة واضح كل الوضوح. بينما تثبت الرواية القرآنية بالمقابل براءتها من كل عنصر يبتعث الانتقاد الموضوعي. وهل استحصل الناس بين عصري رواية التوراة ورواية القرآن على معلومات توضح مثل هذا الحادث؟ بالتأكيد كلا. لان الوثيقة الوحيدة التي كانت بين يدي الناس ما بين العهد القديم حتى ظهور القرآن عن هذا التاريخ كانت هي التوراة بالذات.

ولئن عجزت عوامل انسانية عن تفسير المتغيرات في الروايات المؤثرة في معنى التوافق مع المعارف الحديثة، فإنه ينبغي قبول تفسير آخر. انه وحي آخر لاحق لما هو في التوراة.

---

(١) ألم يكن معنى الرقم ٧ سبعة حشد كبير، كما كان المفهوم رائجاً في ذلك الزمان؟! الجواب في نظر الاسلام مأخوذ من القرآن نفسه الذي يقول أنه حمل معه المؤمنين فقط وأنه ما آمن معه إلا قليل. المترجم.

الخروج حسبما هو وارد في التوراة:

تبدأ الرواية التوراتية بذكر دخول اليهود مصر مع يعقوب، لحاقاً بيوسف. ثم «يأتي إلى السلطة في مصر ملك جديد لا يعرف يوسف» [سفر الخروج ١-٨] انها مرحلة البغي والظلم فرض فيها فرعون على اليهود بناء مدينتي بيتوم ورمسيس حسبما تذكر التوراة. ولكي يحول دون انفجار سكاني لدى اليهود، فرض عليهم بأن يلقوا منهم في النهر كل مولود ذكر جديد. أما موسى فقد خبأته أمه بعد ولادته مدة ثلاثة أشهر، اضطرت بعدها أخيراً أن تعزم على وضعه في سلة من خيزران على ضفة النهر. وهناك اكتشفت بنت فرعون وجوده، فالتقطته، وهيأت له حاضنة هي امه بالذات. لان اخته التي قصت أثره لترى من يلتقطه تظاهرت بأنها لا تعرفه، وأشارت على الاميرة بمرضعة كانت هي أمه. وقد عامله فرعون كأنه ابنه وأعطي له اسم موسى.

وعندما شب موسى ذهب إلى مدين، حيث تزوج وأقام فيها طويلا. ونذكر هنا جزئية مهمة هي أنه «أثناء هذه المرحلة الطويلة مات ملك مصر» راجع كتاب سفر الخروج [٢، ٢٣].

وأمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون، وأن يخرج بقومه من مصر، [خبر هذا الامر موجود في قصة الشجرة الملتهبة] فرافقه هارون في مهمته هذه. ولهذا رأيناه في رجعته إلى مصر يعود مع أخيه إلى فرعون خليفة ذاك الذي كان قد ولد في عهده من قبل.

ولما رفض فرعون طلب مجموعة اليهود أتباع موسى بأن يبرحوا مصر. أوحى الله إلى موسى من جديد يأمره بأن يعيد على فرعون نفس الطلب. وقد كان لموسى من العمر إذ ذاك حسب افادة التوراة ثمانون عاماً. فذهب إليه وأظهر له من عجيب ما كان يملك من قدرات معجزة. ولكن ذلك لم يكف. فأرسل الله على مصر الابتلاءات المعروفة: بدّل مياه الانهار إلى دم. وسلط عليهم الضفادع والبعوض وذباب الحيوانات وموت القطعان وظهور الدمل على جلود الناس والحيوانات، والبرد، والجراد، والظلمات وموت أوائل المواليد. ومع ذلك فقد ظل فرعون يرفض السماح لليهود بالرحيل.

فرعون ظالم اليهود

سورة ١٤ آية ٦:

﴿واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم﴾.

والظلم مذكور أيضاً في نفس العبارات في الآية ١٤١ من السورة ٧ ولكن القرآن لا يذكر كما فعلت التوراة اسماء المدن التي بناها اليهود المسخرون.

وقصة موسى الملقى على ضفة النهر واردة في السورة ٢٠ الآيات ٣٩-٤٠ وفي السورة ٢٨ آيات ٧-١٣. وتفيد هذه الآيات بأن الذي التقط موسى هم آل فرعون. ففي الآيتين ٨-٩ من السورة ٢٨ نقرأ:

﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً. ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون﴾.

وفي العرف الاسلامي أن امرأة فرعون التي اعتنت بموسى هي آسية. بينما لا يذكر القرآن بأن الذي التقطه امرأة فرعون، بل آله، أي سكان قصره.

هذا وشباب موسى واقامته في مدين، وزواجه واردة في السورة ٢٨ والآيات ١٣-٢٨.

غير أن القرآن لم يذكر الآفات العشر التي ابتلى الله بها مصر على أنها القصاص الالهي كما ذكرتها التوراة طويلاً. بل ذكر منها خمساً باختصار شديد [في السورة ٧ آية ١٣٣] وهي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقد سرد القرآن قصة هروب بني اسرائيل من مصر دون ذكرالتفاصيل الجغرافية والعددية الواردة في الرواية التوراتية المشكوك فيها. إنه يصعب علينا تصور، كيف يمكن أن يكون لستمئة ألف مع عائلاتهم كما تدعيه التوراة اقامة طويلة في الصحراء.

ـ اغفال التوراة ذكر ايجاد جسد فرعون بعد موته.
ـ اثبات القرآن ظلم فرعون لقوم موسى.
ـ اغفال الروايتين ذكر اسم فرعون مصر.
ـ اثبات القرآن موت فرعون أثناء الخروج من مصر.

مواجهة معطيات الكتابات المقدسة مع المعارف الحديثة

تمثل الروايات القرآنية والتوراتية المتعلقة باقامة بني اسرائيل في مصر وخروجهم منها، صوراً يمكن أن تكون موضع المواجهة مع المعارف الحديثة. والحق يقال انها ليست سواء، لأن منها ما يحمل مجموعة من المسائل ومنها ما لا يوفر مادة للنقاش مطلقاً.

١ ـ اختبار بعض التفاصيل في الروايات:

اليهود في مصر:

يبدو أنه يمكننا القول، دون خطر الخطأ الكثير أن اليهود، طبقاً لما هو مكتوب في التوراة [سفر التكوين ١٥، ١٣ والخروج ١٢، ٤٠] أقاموا في مصر طيلة أربعمئة سنة أو أربعمئة وثلاثين سنة.

وأياً ما كان هذا الخلاف بين سفري التكوين والخروج، وهو ليس بذي أهمية، فان اقامتهم بدأت بعد ابراهيم، مع استيطان يوسف بن يعقوب واخوته مصر. ونحن لا نملك أية وثيقة غير التوراة، يمكن أن تنورنا في هذه النقطة، وتقدم لنا المعلومات التي روتها، وغير القرآن الذي يذكر هذا الاستيطان دون أن يشير الى أقل اشارة تاريخية.

ومنذ بيير مونتي، ودانيال روسي، فانا نرى بكل تدقيق، بأن وصول يوسف وأهله اتفق مع رحلة الهكسوس إلى مصر حوالي القرن السابع عشر قبل المسيح. وانه في آفاريس من الدلتا كان أحد ملوك الهكسوس هو الذي استقبل يوسف واخوته استقبالاً حسناً.

هذا التقدير، هو بالتأكيد، متناقض مع ما يزودنا به أول كتاب سفر الملوك في التوراة [٦، ١] الذي يحدد زمن الخروج من مصر بسنة ٤٨٠ قبل بناء هيكل

بيد أن الأبيرو قد ذكروا في غير مصر. فهل تنطبق هذه التعابير على اليهود وحدهم؟ ولعل ثمة ما يذكر بأن الكلمة يمكن أن تعني ابتداء عمالاً مسخرين دون معرفة منشئهم، وبالتالي يكون قد استعمل هذا التعبير كوصف مهني. أليس من حقنا أن نقارن هذا مع المعاني المختلفة التي تدل عليها كلمة Suisse في اللغة الفرنسية حيث تستعمل مثلاً بمعنى ساكن في سويسرا، وبمعنى جندي سويسري في الجيوش الملكية الفرنسية، أو حارس في الفاتيكان، أو عامل في الكنيسة المسيحية؟!

ومهما يكن من أمر، فقد ساهم اليهود في عهد رمسيس الثاني [حسب افادة النصوص الهيروغليفية] في الاعمال العظيمة التي أمر بها فرعون. ويمكن القول في أعمال سخروا بها. ولا نرتاب مطلقاً بأن رمسيس الثاني هذا كان ظالم اليهود. ومدن رمسيس والبيتوم المذكورة في سفر الخروج موجودة في المنطقة الشرقية من دلتا النيل. وتنيس وكانتير الحاليتان الموجودتان على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً الواحدة من الاخرى، تجيب على هاتين المدينتين القديمتين. فهناك كانت عاصمة الشمال التي بناها رمسيس الثاني. فرمسيس الثاني هو فرعون الظالم.

في هذه الظروف ولد موسى. وقد رأينا قبل نجاته من مياه النهر. واسمه مصري. أبرز هذا بيير مونتي في كتابه «مصر والتوراة» ميزو أو ميزي هما في لائحة معجم اسماء الاشخاص في اللغة الهيروغليفية. وموسى كانت هي الكلمة التي تحولت الى العربية كما ذكرها القرآن.

ابتلاءات مِصر:

تحت هذا العنوان ذكرت التوراة العقوبات العشر التي ابتلى الله بها المصريين، وأوردت عن كل واحدة منها كثيراً من التفاصيل. وللبعض منها شكلاً وبعداً معجزاً. وقد عدد منها القرآن خمساً فقط؛ ليست في نظر الغالبية الا أحداثاً طبيعية مغالى فيها. وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم(١).

(١) انها ليست في نظرنا كذلك، بل آيات معجزات حصلت على يدي موسى تأييداً له ودعماً لرسالته. المترجم.

لقد قدر البعض، منذ تاريخ بعيد، أن منفتاح خليفة رمسيس الثاني كان فرعون الخروج... ألم يكتب «ماسبيرو» المؤرخ الشهير في مطلع هذا القرن سنة ١٩٠٠ في كتابه «دليل زائر متحف الآثار في القاهرة» أن منفتاح «هو بموجب تقليد اسكندري الاصل، فرعون الخروج الذي هلك ــ كما يقال ــ في البحر» ولكن رغم أني لم أستطع العثور على الوثائق التي اعتمد عليها «ماسبيرو» في زعمه هذا، فان جديته تفرض بأن نعلق على ما أكده أهمية كبرى.

واذا وضعنا «بيير مونتي» جانباً، فإن علماء الاثار المصرية، أو المتخصصين من شراح التوراة المحدثين الذين بحثوا عن الادلة التي قد تكون في مصلحة هذه النظرية أو ضدها قليلون جداً. وقد شاهدنا على العكس في العشرات السنين الاخيرة هذه، تفتح نظريات مختلف بعضها عن بعض، لم ينشئها كتابها كما يبدو، إلا لغرض تأمين التوافق مع أحد تفصيلات روايات الكتابات المقدسة دون الاشتغال بالبحث عن وجوهها الاخرى. وهكذا نرى كيف تتحرك هذه الفرضية أو تلك، التي تبدو متفقة مع وجه من وجوه رواية ما، دون أن يكون كاتبها قد اهتم بأن يقابلها مع جميع المعطيات الاخرى للكتابات المقدسة [ليس فقط بالتالي مع التوراة] وفي نفس الوقت مع جميع المعطيات المكتسبة تاريخياً وأثرياً.

ومن الفرضيات الاكثر طرافة التي ظهرت، نظرية J. de Miceli سنة ١٩٦٠ الذي ادعى بأنه قد وصل إلى تحديد الخروج حتى باليوم. وهو التاسع من ابريل سنة ١٩٤٥ قبل المسيح. وهذا بواسطة حسابات الروزنامة فقط. وان تحوتمس الثاني. وقد حكم اذ ذاك في مصر هو بالنسبة اليه فرعون الخروج، وذلك بالتأكيد. لأن مومياءه قد وصفت ببعض القروح الجلدية التي يصفها الكاتب ــ لا ندري لماذا ــ بالجذام. وان أحد الابتلاءات المصرية التي روتها التوراة كانت الدمل. هذا التركيب المدهش لا يعير أي حساب للوقائع الاخرى للرواية التوراتية، وبخاصة ذكر مدينة رمسيس، التي تجعل كل افتراض في توقيت الخروج من مصر قبل حكم رمسيس، متقادماً أو بالياً.

أما فيما يتعلق بالطفح الجلدي، الظاهر على تحوتمس الثاني، فلا مجال لاتخاذه دليلاً على أنه هو فرعون الخروج، لأن هذا الطفح الجلدي يظهر أيضاً على ابنه

٣ ــ رمسيس الثاني فرعون الاضطهاد ومنفتاح هو فرعون الخروج:

وقد تناول «بيير مونتي» بكثير من الذكاء العرف البدائي الاسكندري [١] المذكور من «ماسبيرو» والذي سنلمحه كثيراً فيما بعد في العرف الاسلامي كما نجده في العرف المسيحي الكلاسيكي[٢] وعززه في كتابه [مصر والتوراة] بادلة مكملة بخاصة ما حملته الرواية القرآنية التي لم يشر اليها هذا العالم الاثري الشهير بأية اشارة. ولنعد قبل التعرض لها الى التوراة.

في سفر الخروج ذكر كلمة «رمسيس» دون أن تسبقه كلمة فرعون. ورمسيس في التوراة هو اسم احدى المدينتين المذكورتين على أنهما اللتان بناهما اليهود سخرة. ونحن نعلم اليوم بأن هاتين المدينتين هما تابعتان لمنطقة تنيس كانتر في الجهة الشرقية من دلتا النيل، حيث بنى رمسيس الثاني عاصمته في الشمال. وقد كان بالتأكيد في هذه المنطقة أبنية سابقة على رمسيس الثاني. غير أنه يعود إليه أنه جعل لها موقعاً هاماً. وقد حملت الحفريات المباشرة في العشرات السنين الاخيرة عنها البرهان الواضح بأنه سخر لبنائها اليهود المستعبدين.

وقراءة كلمة رمسيس في التوراة لا تفاجيء الفكر في أيامنا، لانها اشتهرت منذ اكتشف «شامبليون» مفتاح الهيروغليفية [منذ قرن ونصف] وهو يدرس الصفات الاساسية التي توضحها. وقد اعتاد البعض على قراءتها حالياً، والنطق بها، مع معرفة ما تعنيه. ولكن ينبغي أن ندرك بأن المعنى الهيروغليفي قد فقد تقريباً في القرن الثالث من العهد المسيحي، وان اسم رمسيس لم يكن محفوظاً مطلقاً إلا في التوراة، وبعض الكتب اليونانية واللاتينية التي حرفته بعض الشيء. ولهذا فان «تاسيت» في أخباره يتكلم عن رعمسيس. أما التوراة فقد احتفظت بالاسم صحيحاً وذكرته أربع مرات في الاسفار أو التوراة [سفر التكوين ٤٧، ١١ سفر الخروج ١، ١١، ١٢، ٣٧، عدد ٣٣، ٣، ٣٣، ٥].

والتوراة العبرية تكتب كلمة رمسيس بطريقتين RAemss وRAeamss [٣]

---

(١) لا شك أبداً بأنه في عصر بطليموس المجيد كان الناس يملكون في الاسكندرية، قبل خراب غزو الرومان، وثائق تاريخية عن العهود القديمة.

(٢) في التاريخ المقدس حتى مطلع القرن العشرين كما في تاريخ H. lesetre الهادف الى التعليم المدني ذكر الخروج كحادث في عهد منفتاح.

(٣) الحرف «e» يعبر عن العين العبرية.

ونحن نعلم بأن رمسيس الثاني حكم سبعاً وستين سنة [من ١٣٠١-١٢٣٥] حسب تاريخ «دريوتون» و«فانديه» أو ما بين [١٢٩٠ و١٢٢٤] حسب تاريخ «راوتون» والعلماء في التاريخ المصري لم يستطيعوا أن يحصلوا بالنسبة لفترة ملك خلفه منفتاح على مدة محددة. ولكنهم يرون بأنها على الاقل عشر سنوات. لان السنة العاشرة من حكمه مثبتة بوثائق كما يثبته الاب دوفو. بينما يرى مانثون أن فترة حكمه كانت عشرين سنة. ويقدر دريوتون وفانديه لمنفتاح امكانيتين:

ـــ اما أن تكون فترة حكمه قد امتدت عشر سنوات من ١٢٣٤-١٢٢٤.
ـــ أو انها كما ذهب راوتون[١] امتدت عشرين سنة من ١٢٢٤-١٢٠٤.

وليس لدى علماء التاريخ المصري شيء أكيد فيما كانت عليه نهاية حكمه. وكل ما يعرفونه ان مصر مرت بعده بضائقة داخلية خطيرة دامت قريباً من ربع قرن.

ورغم أن عناصر تاريخ عهود الحكم غير دقيقة، فانه ليس طيلة الامبراطورية الجديدة فترات أخرى أو عهدان متتابعان طالا أو تجاوزا مدة ثمانين سنة إلا عهدي رمسيس الثاني ـــ منفتاح.

ولا يمكن أن تكون معطيات التوراة المتعلقة بعمر موسى، عندما طلب من فرعون تحرير اخوانه متوفرة إلا في فترة تتابع عهدي رمسيس الثاني ومنفتاح. وكل شيء يتيح القول بأن موسى قد ولد في أول عهد رمسيس الثاني. ووجد في مدين عند موته بعد سبع وستين سنة من حكمه. وكان قريباً بالتالي من منفتاح من رمسيس الثاني وخلفه، محامياً عن يهود مصر. هذا الحادث يمكن أن يمر في الجزء الثاني من عهد منفتاح إذا حكم عشرين سنة كما هو ممكن، وكما يفكر فيه «راوتون».

لقد قاد موسى الخروج اذن من مصر في اخر حكم منفتاح على كل الاحوال، لأن فرعون قد فقد حياته بملاحقة اليهود الذين خرجوا من البلد كما يذكر القرآن والتوراة.

---

(١) لعل الكاتب يريد هنا مانثون. المترجم.

مَسْألة المسلة

فى السَّنةِ الخامِسَة فى عَهد مِنفتَاح

لقد ظن البعض بأنه يمكن العثور على نص المسلة الشهيرة عن سنة منفتاح الخامسة معارضة للنظرية المطروحة هنا في الخروج من مصر الخاص بآخر دور من حكمه.

ان لهذه المسلة فائدة عظيمة لانها تمثل الوثيقة الهيروغليفية الوحيدة المعروفة التي ذكرت فيها كلمة «اسرائيل» [1] والمسلة وهي قد تعود إلى الجزء الاول من حكم منفتاح، اكتشفت في طيبا في معبد مأتمي مظلم لفرعون. انها تذكر مجموعة انتصارات أحرزها على جواره في مصر، بخاصة في اخر الوثيقة فانها تذكر انتصاراً على «اسرائيل المدمرة والمسحوقة التي لم يعد لها بذر تزرعه» وقد رأى البعض من هذا أن وجود كلمة اسرائيل يعني أنه ينبغي أن يكون اليهود قد استوطنوا أرض كنعان في سنة منفتاح الخامسة، وان خروجهم بالتالي كان قد تم في هذه الفترة.

ولا يبدو أن هذه الملاحظة مقبولة. لانها تعني أنه لم يبق هناك من يهود في كنعان ما داموا في مصر وهو ما لا حجة له. ومع ذلك فان الاب دوفو كتب مؤيداً نظرية رمسيس الثاني في كتابه تاريخ اسرائيل القديم في معرض الحديث عن استيطانهم أرض كنعان «بصدد الجنوب، فان تاريخ استيطان مجموعات منتسبة إلى الاسرائيليين في منطقة قادس غير محدد وهو قبل الخروج» انه يواجه اذن صحة استيطان بعض مجموعات خارجة من مصر في فترة أخرى غير فترة خروج جماعة موسى «ان الابيرو أو الهابيرو الذين يرى البعض أنهم يمثلون وحدة مع

(١) ان الكلمة ملحقة بتعريف لا يترك أي شك فيما تعنيه من مجموعة انسانية.

لقد أصبحنا نعلم اليوم، بأن فترة طويلة من التكوين امتدت ثمانية أو تسعة قرون سبقت وقت دخول اسرائيل في التاريخ. ولقد تميزت هذه الفترة باستيطان العديد من مجموعات الساميين الرُحّل في كل المنطقة، وبخاصة الاموريين والاراميين، وبظهور الجدود الاعلين في صميم مجموعاتهم الذين كان منهم ابراهيم واسحاق ويعقوب ــ اسرائيل. والاسم الثاني للجد الاخير استعمل ليعني المجموعة البدائية، نواة الكيان السياسي المستقبلي الذي سيظهر بعد حكم منفتاح بكثير لأن المملكة الاسرائيلية دامت من ٩٣١-٩٣٠ حتى ٧٢١ قبل المسيح.

٤ ــ ذكر الكتابات المقدسة لموت فرعون زمن الخروج:

يشكل موت فرعون زمن الخروج نقطة هامة جداً في روايات القرآن والتوراة. وهي تنبثق عن نصوص شديدة الوضوح غير مذكورة فقط في الاسفار الخمسة أو التوراة بل في مزامير داود أيضاً، وقد أوضحنا ذلك آنفاً.

والعجيب أن الكتاب المسيحيين يمرون بذلك بصمت. فهذا الاب دوفو يساند النظرية التي تفيد بأن الخروج من مصر كان في الجزء الاول أو في وسط حكم رمسيس الثاني، دون أن يحاول التأكد فيما اذا كان فرعون قد هلك في هذا الخروج. وهو ما لم يسمح، في كل الافتراضات بأن يحدد وقوع الحادث إلا في آخر فترة الحكم. ولا يبدو مدير مدرسة التوراة في القدس في كتابه «تاريخ اسرائيل القديم»، مهتماً بأي نوع من التعارض بين النظرية التي يسندها ويدافع عنها، وبين معطيات كتابي التوراة.

ويحدد P. montet في كتابه «مصر والتوراة» الخروج من حكم منفتاح. ولكنه لا يذكر كلمة عن موت فرعون الذي كان على رأس الملاحقين للهاربين.

هذا الموقف العجيب يتناقض مع موقف اليهود. فهو في الغالب منشد في طقس من مزمور داود رقم ١٣٦ الذي في آيته ١٥ يشكر الله الذي أغرق فرعون وجيشه في بحر القصب. انهم يعرفون التوافق بين هذه الآية وعبارة سفر الخروج [١٤، ٢٨، ٢٩] «واندفعت المياه وغمرت العربات وفرسان كل جيش فرعون

الا في أواخر القرن التاسع عشر. وقد ثبت كما يقول القرآن، بأن بدن فرعون الخروج قد نجا.. أياً كان هذا الفرعون، فانه اليوم في صالة المومياءات الملكية في المتحف المصري في القاهرة ميسرة رؤيته للزائرين. والحقيقة هي اذن مختلفة جداً عن الخرافة المضحكة المنسوبة خطأ إلى القرآن من قبل الاب كورواييه.

٥ ــ مومياء فرعون ــ منفتاح:

لقد اكتشف «لوريت» منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كل شيء على اقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، سنة ١٨٩٨ في طيبا في وادي الملوك. وقد نقل من هناك إلى القاهرة وحل «اليوت سميث» عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧ وضبط محضر هذه العملية. وفحص البدن في كتاب المومياء الملكية سنة ١٩١٢. وحالة حفظ المومياء كانت مرضية في هذا العصر مع بداية التلف في عدة مواضع. ومن هذا التاريخ أصبحت المومياء معروضة على الزائرين في متحف القاهرة مكشوفاً منها الرأس والعنق، وبقية البدن مغطاة باحكام بقطعة قماش إلى درجة أنه حتى في هذه الاشهر الاخيرة لم يؤخذ لها أية صورة غير تلك التي أخذت لها من «اليوت سميث» سنة ١٩١٢.

وفي حزيران سنة ١٩٧٥ سمحت لي المراجع العليا المصرية بفحص اجزاء بدن فرعون الذي ظل حتى هذا التاريخ مغطى، وبأن آخذ له بعض الصور. وعندما قورن وضع المومياء الحالي مع وضعها منذ أكثر من ستين عاماً، ظهر بوضوح بأن بعض التلف قد أصابها، وأن بعض الاجزاء قد اختفت منها. كما ان الاقمشة التي كانت ملفوفة بها لم تكن أحسن حالاً منها بسبب لمس الايدي لبعض أجزائها. وبعامل الزمن ــ اذا أمكن القول ــ وعوامل أخرى.

ولقد أوضح تماماً هذا التلف الطبيعي، بأنه بسبب تغير شروط الحفظ بين يوم اكتشافها للناس في آخر القرن التاسع عشر في قبر تحت الارض «طيبا»، حيث كانت ترقد منذ أكثر من ثلاث آلاف عام. والآن هي معروضة ضمن حافظ زجاجي بسيط، لا يعزلها بشكل محكم عن الخارج، ولا يمنع عنها التلوث ببعض الميكروبات العضوية. وهي خاضعة لانحراقات في الحرارة وغير محمية من الاصابة برطوبة فصلية.

المادي الوحيد الذي لا يزال موجوداً في أيامنا عن موت فرعون الخروج، ونجاة بدنه بمشيئة الله.

انما لأمنية بأن يجتهد الانسان في حفظ معالم تاريخه. بيد أنه هنا، يطلب ما هو أكثر، يطلب تجسيد في بدن مومیائي للانسان الذي عرف موسى، وقاوم عروضه ولاحقه في هربه ثم فقد حياته في ذلك. وقد نجت جثته بارادة الله من العدم وأصبحت آية للناس كما قد سجل القرآن ذلك[1].

يا لها من التماعة عجيبة للآيات القرآنية، تلك المختصة بجسد فرعون المعروض في صالة المومياءات الملكية للمتحف المصري في القاهرة، والتي تقدم لكل باحث في معطيات الاكتشافات الحديثة براهين صحة الكتابات المقدسة.

(١) ان مومياء رمسيس الثاني شاهد آخر على تاريخ موسى كان غرض دراسة مقارنة مع حياة مومياء منفتاح. انها تحتاج نفس الوسائل الترميمية.

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة في الاسلام. بل ان السنّة النبوية من أفعال النبي ﷺ وأقواله هي المصدر الثاني الذي عني العلماء بطلبه تكملة للمصدر الأول، حتى أثناء حياة النبي، فضلاً عنه بعد وفاته. وكانت معلومات هذا المصدر الثاني تعتمد فقط على النقل الشفهي. لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الاقوال والأفعال في نصوص، قد قاموا بتحقيقات تتّسم دائماً بالصعوبة كما هو الشأن في حكاية جميع الاحداث بعد انقضائها. ولهذا كان همهم الأول في عملهم العسير في مدوّناتهم منصبّاً أولاً على دقّة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة في حياة محمد ﷺ وبكل قول من أقواله، ولذلك فقد نصّوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله وذلك بالصعود في الإسناد إلى الأول من أسرة النبي ﷺ ومن صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة منه.

وهكذا فقد ظهرت للوجود مجموعات أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وأصبحت تعرف الآن في العلوم الاسلامية بـ«علم الحديث». وإذا كانت لفظة «حديث» قد تشير فقط إلى القول، فانها تجمع أيضاً روايات أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد نشرت أوائل المجموعات في الاحاديث في العشرات السنين التي تلت مباشرة وفاة النبي ﷺ وكانت كميّة الاحاديث المجموعة في القرن الاول بعد وفاة النبي ﷺ محدودة بالنسبة إلى كثرة المنقول منها. فلم تظهر المجموعات الضخمة من الحديث إلا بعد أن كان قد مضى أكثر من قرنين على وفاته ﷺ. وبالتالي فانها تؤكد بأن التي أعطت منها المعلومات الأوفى لم تكن تلك التي كان ظهورها أقرب الى عصر محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا وإن مجموعات البخاري ومسلم التي ترجع إلى ما بعد محمد بمئتي سنة هي التي أعطت التوثيق الأصح والاوسع. وإن كتاب البخاري ليعتبر أصح كتاب بعد القرآن. وقد ترجمه إلى الفرنسية «هوداس» و«مارسيه» فيما بين